

كلهم في النار

إنهم يأكلون النار ، ويبيعون النار ، ويشربون النار
لكي يعيشوا في الجنة . . .
ولكن النار في النهاية تأكلهم وتأكل جنتهم . .

اللافتة الطويلة القائمة فوق بابي الدكان بطول ستة أمتار تقريباً تقول : الحاج محمد راغب عبد العال ، تاجر حدايد وقطع غيار وخلافه . .
والداخل إلى الدكان الواسع يرى بالفعل أشياء حديدية كثيرة تتناثر في جوانب المحل : ربطات ضخمة من حديد التسليح علاها العصداء ملقاة بطول الحوائط ، ومنضدة طويلة اختفى لون خشبها وتغطت ببقايا زيوت ودهانات ويقوم عليها خليط من « الحدايد » : قطع من سياجات حديدية للأسوار والشرفات ، ترايس كثيرة ذات أحجام مختلفة ، أكوام من الأقفال والمفاتيح ، سلاسل غليظة ومتوسطة ، كماشات وقواديم (مطارق) ، ورافع سيارة عمره خمسون سنة . وهنا وهناك في جوانب المحل ترى حمالات أزيار وصفائح ومواسير و « خلافه » كما يقول عنوان المحل . .

وهذه « الحدايد » كلها لا تساوى في مجموعها عشرين أو ثلاثين جنيهاً . وهى لا تفسر لك ما يقوله الناس من أن الحاج محمد راغب عبد العال صاحب أملاك وعقارات وأموال . . . ولكنه - بالفعل - صاحب هذه الأملاك كلها ، فن

المؤكد - مثلاً - أنه يملك عمارة ضخمة من تسعة أدوار على ناصية شارع الشرايين تحتها صيدلية ذات أربعة أبواب إيجارها وحدها ٣٢٠ جنياً كاملة ، فهي حديثة البناء .

ومن المؤكد كذلك أنه يملك عمارة ثانية من عشرة أدوار في شارع الميرغني في مصر الجديدة ، فيها أربعون شقة لا يقل إيجار الواحدة منها عن خمسة وعشرين جنياً ، ولها بواب همام ضخمة في هيئة فرعون من الحجر . . وفي الشارع نفسه مبنى المعلم عمارة ثالثة . .

مثل هذا المال لا يمكن أن يأتي من ذلك الدكان . .

فالدكان نفسه - على تفاهة ما فيه - يقوم بالعمل فيه شاب أشبه بقاطع الطريق ، يجلس معظم الوقت على باب الدكان يدخن سيجارة في إثر سيجارة ، ويجتمع هو في معظم الأحيان وقر من الصعاليك أمثاله . وكلهم في خدمة المعلم ، وهو نفسه بسميهم المقاطيع ، وهو لا يعطيهم مرتبات ولكنه يسمح لهم بأن « يسترزقوا » من أعماله .

لا بد أن في الأمر سرًا . .

وسر هذا التناقض بين المظهر والمخبر نعرفه إذا حاولنا الدخول من الباب الخشبي العتيق العريض ، الذي يقوم في المبنى نفسه إلى جانب أبواب الدكان . لا نكاد نطرق الباب حتى يفرع إلينا بعض أولئك الصعاليك يسألوننا عما نريد . هم إذن حرس لهذا الباب ، والرجل الذي يدخن السجائر على باب الدكان لا بد أنه رئيسهم . ها هو ذا يتقدم نحونا بمعطفه الكاكي المثقل بالبقع ينسدل على جلباب لم يعرف الغسل في حياته ! وعلى رأسه طربوش حائل اللون هو بقية من عصر الطرايش .

- أفندم ، حضراتكم تريدون شيئاً ؟ . .
 - نريد أن نقابل المعلم (محمد راغب عبد العال) .
 - المعلم غير موجود .
 - لا بد أن يكون موجوداً ، لأن لنا معه عملاً .
 - هل أعطاكم هو الميعاد ؟
 - نعم ، قل له زكى سليمان معروف ، والحاج سعيد ، والأوسطى لبيب .
 - سأرى أولاً إن كان موجوداً . .
- ويطرق الباب بضغمرات حتى نسمع وقع أقدام يقترّب ، ثم يفتح الباب ،
فيدخل الرجل ذو الجلبات والمعطف والطربوش ، ثم لا يلبث أن يعود ليقول :
- ولا مؤاخذه . . الحاج غير موجود . .
 - ويُقفلُ الباب ، ودون أى اكترات يتركنا ليعود إلى أصحابه . . .
 - أخطأنا بالجحىء مع أولئك الثلاثة ، فهم دائنون للحاج محمد راغب
عبد العال ، والدائنون لا يمكن أن يروا المعلم أبداً إلا عندما يريد .

* * *

ولكن المعلم موجود .
هذا الباب يؤدى إلى دهليز ينتهى فى رحبة بيت واسعة .
والبيت كله لا يضم إلا الدكان الذى رأيناه وذلك الباب وتلك الرحبة .
وبقية البيت هدمت من زمن طويل ، فتحن فى بيت عتيق اشتره الحاج من
ورثته بتراب الفلوس ، وهدم الأدوار العليا التى كانت تهالك يوماً فيوماً وبني لنفسه
بدلها كلها سكناً صغيراً ولكنه مستكمل لكل مطالب البيوت الحديثة .
ويؤدى إلى هذا السكن سلم واسع دون سياج تراه فى صدر الرحبة إذا انتهيت

من الدهليز .

الرجبة فسيحة يغمرها النور ، فهي مكشوفة للسماء . إلى جانب الجدران تراسص صناديق وعلب وجوالات وزكائب في صفوف يلي بعضها بعضاً وتتعالى بضعة أمتار . وقد جعل المعلم بينها ممرات وسرايب يستعملها في أغراضه ، وقد يخفى فيها إذا شاء . وهناك أيضاً لفآت من الحبال والأسلاك الكهربية وثلاثة صفوف من إطارات السيارات . دواليب ومنضدة عليها لفآت تشبه أن تكون أثواب قماش ، وأكياس كثيرة ربما كانت أكياس أسمنت أو أرز أو كيماويات . هناك أيضاً كوم كبير من التراب والحجارة تركها المعلم في مكانها عمداً ليخفى في باطنها ما يريد أن يخفيه .

وتحت السلم يجلس الحاج محمد راغب عبد العال ساكناً دون أى حركة كأنه نائم . ولكن في يده سيجارة يتساعد منها الدخان . إنه ليس نائماً تماماً ، وإن تظاهر بذلك . جلس على كرسى أسبوطى ، ومد رجله على كرسى خيزران . هناك كرسى ثالث عليه صينية فوقها كئكة وفنجان وكوب ماء ، كلها فارغة .

إنه رجل بدين ، وجهه المتفتح يدل على نعمة ، وملابسه - برغم عدم عنايته بها - غالبية الثمن ونظيفة جداً . قفطانه من الشاهى الحريرى المحترم على كرسى ، إلى جانبه نجد معطفه الأسود مطبقاً بعناية ، وفوقه تستقر عمامته ذات اللاسة اللامعة . إلى جانب العمامة علبة سجائر أمريكية ، ومنشئة ، وظرف فيه أوراق .

من حين لحين يفتح عينيه ويدور ببصره فيما حوله . إنه يعرف كل شىء في هذه الرجبة ، حتى صندوق إبر الحقن الصغير الراقد في قاع أحد الدواليب ، والجواهر الكثيرة الممسوسة في جوف التراب .

ها هو ذا يشعل سيجارة ويقف ويسير ببطء نحو السلم بعد أن يدور ببصره في

المكان ، ويصعد السلم ببطء . ويخرج مفتاحاً يفتح به باباً ويدخل ويغلقه خلفه . هذا الباب يؤدي إلى الشقة الصغيرة التي أعدها لنفسه ليرتاح فيها . إلى يمين الغرفة باب يؤدي إلى حمام حديث نظيف لامع ، وإلى اليسار باب آخر يؤدي إلى مخزن واسع . هنا نجد أشياء أخرى . صناديق زجاجات ويسكى وخمور أخرى ، صناديق أدوية ، صناديق أدوات لازمة للبيوت وما إلى ذلك . هنا في ذلك المخزن كل شيء في صناديق مرتبة بنظام وعناية . هذا هو حصن الحاج وكتزه . هنا مملكته !

وكانت الهدايد - إذن - مجرد ستار . .

في الغرفة التي دخل إليها المعلم نجد أثاثاً منسقاً بعناية هو : سرير وتسريحة وكروسيان ومصباح كهربى ذو غطاء أحمر ، وعلى الأرض سجادة والحوائط مدهونة بالزيت ، وهناك تسريحة ذات مرآة كبيرة جميلة عليها تليفون . هنا وكر ثعلب ذى فروثمين . .

* * *

أغلق الباب بالمفتاح وتيقن أن النوافذ مغلقة ، ثم دخل المخزن وأخذ يحصى الموجودات ويراجع كشفاً صغيراً في يده . هذه عملية يومية . لا بد أن يعرف كم عنده من كل شيء ؟ لأنه - من موقعه تحت السلم - يراقب السوق ويقرر الأسعار التي سيبيع بها كل صنف مما عنده . هذه الأسعار تحددها حاجة السوق إلى الصنف ، ومهارته هو في أن يشتري بأرخص ويبيع بأعلى ثمن . من ناحية المبدأ يقول دائماً : إن عنده كل شيء مطلوب أو نادر ، ولكنه يقول إنه لا يدرى أين هو : في البيت أو في المخزن أو في بדרوم عمارة العباسية أو مصر الجديدة ؟ إنه يدعى أنه لا يعلم ، وهو يعلم بالضبط أين يوجد كل شيء ، فهو يعرف - مثلاً - أن الصناديق الأربعة

من بوجهات السيارات وبلاطياتها في علب حلويات من لبنان راقدة خلف التبريحة . .

وبينا كان منهمكاً في الإحصاء سمع نقرأ على الباب .
من النقر عرف الناقر؟ إنساناً لا بهم . مضى في عملية الإحصاء . تكرر النقر .
لا بهم . عندما عاد النقر مرة ثالثة عرف أن الأمر مهم . أطفأ النور . ووضع أوراق الإحصاء في شق ضيق بين دولابين . هذا مستودع الكشوف والأسرار . .

سار في بطء وأغلق باب المخزن واضطجع على السرير وقال في صوت من يستيقظ من النوم :

- وبعدين؟ . . وبعدين يا حلمي الكلب؟ . . لا بد أن تقلقني من النوم كل يوم؟ . .

- شيء مستعجل يا معلم . . لا مؤاخذه . . لا مؤاخذه . . لكن صباح الخير أولاً . . .

- صباح الهباب . . ما هذا الشيء المستعجل؟
- بس افتح يا حاج حتى أكلمك .

- أنا عارفك ولد لعبي لا تنفع في شيء . . امش شوف شغلك . .
- يا معلم اعمل (معروف) . . كنت في البيت عندك لأعطي طارقاً ابنتك
الدرس . . وجدت حرارته مرتفعة . . أقصد . .

- يعني لا تريد أن تعطيه الدرس اليوم . . طيب دع الولد في حاله . . وانزل أنت في الحوش عندنا ؛ أكياس أسمنت أبيض ، أخرجها وأخرج معها كيسين من الأسيداج ، أعطها برهوماً وقل له أن يذهب بها للمعلم متبول ويقول له أن يرسل

غلاماً يأخذها ومعه ٦٠ جنيهاً لا تنقص مليماً ، لا تسلموه شيئاً إلا إذا قبضتم المبلغ . .

ووقف حلمى فى حيرة من أمره ولم يجد بدءاً من هبوط السلم وهو يقول لنفسه : أقول له إن ابنه مريض ، يقول لى شوف أكياس الأسمت والأسيديج . . هل هذا « بنى آدم » ياناس ؟ . . ثم يعطيه الله هذا كله ! حكم . . والله حكم ! . . وتردد صوت الحاج يقول فى سخرية :

- سامعك . . سامعك يا وجه التحس . .

وجمد حلمى فى مكانه ، ثم التفت فرأى الحاج فى أعلى السلم فاندفع يقول :

- ثلاثة بالله العظيم ياعلم ما قلت شيئاً . . أنا بس مهموم بسبب طارق . .

طارق ابنك . .

- امش إلى عملك . . قل ليهوم ما قلت لك . . امش والإقطع عيشك

الآن . . ونزل حلمى السلم صامتاً وقد انكش فى ثيابه حتى أحس أنه حشرة

صغيرة . وكان حلمى - بالفعل - حشرة . إنه نحيل ، بادى العظم ، طويل

الرقبة ، أسمر اللون ، يضع على عينيه نظارة غليظة ويرتدى بذلة هالكة وحذاء

بالياً . كان أصله مدرساً إلزامياً فى قريتهم قرب فاقوس شرقية . ثم ارتكب ما جعل

الوزارة تفصله من الخدمة فضى إلى القاهرة كما يفعل ألوف النفايات والجياع أمثاله .

ذهب يلتمس الرزق من قامة البلد الكبير . نزل عند أخت له تقيم فى هذا الشارع

الذى يقوم فيه محل الحدايد ، وبدأ يعمل فى الدروس الخصوصية . واتصل بالمعلم

ليعطى ابنه طارقاً درساً خاصاً ووجد فيه الحاج يداً رخيصة ونخادماً ذليلاً ، فهو

طريد الحكومة مستعد لأى عمل فى سبيل لقمة العيش ، فجعله كاتباً له يكتب عنه

ما يريد ويرسله فى شؤنه الخاصة . وكان حلمى فى حدود الخامسة والثلاثين ، وكان

خفيف الحركة بعيد الذكاء ، واسع الخيلة ، فلم يلبث أن بلغ عند الحاج مكانة كبيرة ، ولكنه ظل دائماً خليعاً ماجناً أو « واد هلس » كما يقول المعلم : يسكر ما استطاع إلى السكر سبيلاً ، ويجرى وراء النساء إذا وجد من النساء من تسمح له بالجري وراءها ، فظل يرغم مواهبه في مراتب الخدم عند المعلم ، لا يزال يتلقى من المعلم أقسى الإهانات دون أن يشعر بإهانة أو حتى بألم . وكان راتبه تافهاً عن التدريس و « السكرتارية » كما يقول ، فلم يزد قط عن خمسة عشر جنيهاً في الشهر : مع أنه كان يعمل طول النهار وجانباً كبيراً من الليل ، وكان يتعرض دائماً للمشاجرات مع الأشرار من منافسي المعلم ، وأصابه من ضرهم الكثير ، ودخل السجن مرة بعد مرة وأصبح من أرباب السوابق .

* * *

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً عندما أقبلت سيارة نقل صغيرة ووقفت على بُعد بضعة أمتار من الدكان ، وخرج منها شاب يلبس معطفاً أبيض وقال لصاحبه الذي كان يسوق السيارة :

- انتظر هنا . حاسب على السناديق .

ثم مضى حتى أقبل على الحرس الحقيق الذي يتجمع قرب باب الدكان وألقى التحية ثم قال :

- هذا محل الحاج محمد راغب عبد العال ؟

- ألا ترى اللافتة على الباب ؟

فنظر إلى اللافتة وقال :

- صحيح .. لا مؤاخذة ..

- من أنت ولماذا تريده ؟
- أنا من ناحية الحاج متولى عطا . . أريد أن أقابل الحاج . .
ونظروا إليه جميعاً في ريبة واحتقار ، وقال له أحدهم :
- أستطيع أن أرى بطاقتك ؟
- وأخرج بطاقته وناولها إياها ، فنظر إلى وجه الرجل في السورة وقرأ : توفيق زكى غراب ، ممرض بوزارة الصحة . . ثم نظر إلى وجه « الأصل » مرة أخرى وقال :
- هذا الوجه سبق أن رأيته . . . أنت لست ممرضاً . .
- أنا تاجر وقد أتيتكم من ناحية الحاج متولى عطا ؟
- لا أعرف أحداً اسمه متولى عطا . .
- الحاج يعرفه . .
- ليس عندنا حججاج . . عندنا معلم ، ثم إنه ليس موجوداً الآن . . تعال بعد الظهر . . وكان رئيس المجموعة قد دخل إلى البيت ، فعاد متباطئاً ثم قال :
- المعلم يسألك : متى رأيت الحاج متولى عطا ؟
- فنظر الممرض إلى الصعلوك الذى قال له إن المعلم غير موجود نظرة تأنيب واحتقار وقال :
- الآن ، أنا قادم من عنده . . .
- ولكنه مسافر . . .
- حضر صباح اليوم ثم سافر ، إذا لم تصدقوني فاسألوا مساعده (عم خليل) بالتليفون . . وفتح الباب وظهر المعلم وقال :
- تعال يا جدد . . تعال أنت أيضاً يا بسبوني ؟ . . فين برهوم ؟ . . قولوا له يأتى

ثم بصر مجلماً وقال :

- ألم تذهب بعد ؟ ..

- أنتظر عربة كارو لأحمل عليها البضاعة التي أمرتني بتوصيلها ..

- دع هذا الآن .. وتعال أنت أيضاً ..

وسار المعلم في تودة ، وسار من خلفه هذا النفر من أتباعه ، ووصل مكانه

فجلس وقال لبيسوفى :

- جهز لى الشيثة واعمل لى قهوة ..

وقال لبرهوم :

- تركت الباب مفتوحاً ! ..

فجرى برهوم وأغلق الباب وأحكمه بالترباس ، ثم عاد فوقف غير بعيد من

المرض . وقال المعلم مخاطباً هذا الأخير :

- اجلس .. هل تعمل مع الحاج متولى ؟

- لا .. أنا ممرض وتاجر .

- إذن ما صلتك بمتولى ؟

- أعمال تجارية من وقت لوقت .

- ماذا تريد بتجارية ؟

وقدم له سيجارة ، ثم عاد يقول :

- تجارية زى إيه ؟

فابتسم الممرض وقال :

- أصلى : بافهم فى الأدوية ..

فأخذ المعلم نفسه من النارجيلة وفكر طويلاً ، ونظر إلى المرضز متفحصاً ثم قال :

- فهتت . . .

وبعد لحظة صمت قال :

- عندك شيء من ناحية الحاج متولى ؟

- نعم ، كانت لدينا بيعة ميعادها اليوم ، فلما ذهبنا إليه بها كان على وجه سفر فاقترح أن نذهب إليك وقال إنه كلمك بالتليفون . .

ففكر المعلم طويلاً ثم قال :

- آه تذكرت . . هذا الكلام كان أمس ليلاً . . في ساعة متأخرة . . أنت

اسمك فرج ؟

- لا . . هذا زميل ، أما أنا فخادمك توفيق . .

- توفيق ماذا ؟

- توفيق زكى غراب .

- أيوه . . أيوه . . الآن أذكر . . معك أدوية ؟ . .

- أجل . . لقطعة . .

- أنا لا أتاجر في الأدوية . . أسماؤها كلها بالإفرنجى .

فتدخل حلمى قائلاً :

- أنا أقرأ الأسماء يامعلم . .

- اخرس انت . .

- أصل ده بنسلين للحمى . .

- بنسلين ؟ . . هذا بملاً السوق . .

- مَيْلاً السُّوقُ ؟ .. فِي مِصْرَ كُلِّهَا الْيَوْمَ لَا تَجِدُ حَقْفَةَ وَاحِدَةٍ .
 - الْمَصْنَعُ مَتَعَطَّلٌ مِنْ أَسَابِيعَ . سِيرَ الْمَاكِينَةُ مَقْطُوعٌ وَلَا بَدَّ مِنْ اسْتِرَادِ سِيرٍ آخَرَ .
 فَتَدَخَلَ أَحَدُ أَعْوَانِ الْحَاجِّ وَقَالَ :
- مِنْ أَجْلِ سِيرِ جِلْدٍ يَتَعَطَّلُ مَصْنَعٌ تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ حَيَاةُ النَّاسِ ؟
 فَقَالَ الْمَعْلَمُ : هَكَذَا شَغَلَ الْحُكُومَةَ . يَشْتَرُونَ مَاكِينَةَ بِمِائَةِ أَلْفِ جِنِيهِ وَلَا يَحْضُرُونَ
 مَعَهَا سِيرَ جِلْدٍ ثَمَنُهُ خَمْسُونَ جِنِيهَاً .
 فَقَالَ يَرْهُومُ :
- أَحْسِنِ لَنَا يَا مَعْلَمُ . . .
 - آه . . . لَكُنَّا لَسْنَا مَحْتَاجِينَ إِلَى أَدْوِيَةِ الْآنَ . . .
 فَتَغَاضَبَ الْمَرَضُ تَوْفِيقَ زُكِيِّ غَرَابٍ وَقَالَ وَهُوَ يَهْمُ بِالذَّهَابِ :
- طِيبٌ لَا مَوْأَخِذَةَ . . . يَبْدُو أَنَّ بِضَاعَتَنَا لَا تَنْفَعُكُمْ . . . السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . . .
 وَمَضَى فِي تَجَاهِ الْبَابِ ، وَأَشَارَ الْمَعْلَمُ إِلَى خَادِمِهِ بِسَيُونِي فَنَادَاهُ هَذَا قَائِلًا :
- تَعَالَ يَا سَيِّ تَوْفِيقُ . . . مَا هَكَذَا يَفْعَلُ التَّجَارُ . . . لَا بَدَّ أَنْ تَشْرَبَ الْقَهْوَةَ . . .
 - وَاللَّهِ وَرَأَيْتُ عَمَلًا كَثِيرًا . . . وَهَذَا لَيْسَ وَقْتُ قَهْوَةٍ . . .
 - وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ أَنْ تَتْرَكَ الْمَعْلَمَ وَتَخْرُجَ هَكَذَا . . .
 - الْمَعْلَمُ مَشْغُولٌ . . . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ غَرَضٌ فَأَنَا لَا أُرِيدُ تَضْيِيعَ وَقْتِهِ .
 - تَعَالَ يَا أَخِي وَرَوِّقْ دَمَكَ . . . التَّجَارَةُ أَخَذَتْ وَعَطَا ، وَالْحَاجُّ لَا يَمِيلُ إِلَى تِجَارَةِ
 الْأَدْوِيَةِ ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّكَ ابْنُ حِلَالٍ . . .
- إِذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ الْبَنْسَلِينَ مَالِي السُّوقِ فَلَا مَعْنَى لِلْكَلَامِ . . .
 - قَصَدْنَا مَالِي السُّوقِ لِمَنْ يَعْرِفُ أَيْنَ يَحْصُلُ عَلَيْهِ . . . هَذَا الْبَلَدُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ ،
 وَلَكِنْ الْمَهْمُ أَنْ تَعْرِفَ أَيْنَ هُوَ وَكَيْفَ تَحْصُلُ عَلَيْهِ . . .

وقال المعلم :

- تعال يا توفيق يا ابني .. تعال اقعدي إلى جانبي .. فين القهوة ؟ ..
وأسرع واحد من المقاطيع ليأتي بالقهوة ..

وقال المعلم :

- اقفلوا الباب يا اخواننا .. لا نستطيع الكلام في التجارة على قارعة الطريق هكذا .. وأقفل الباب .. وأقبل توفيق فجلس ، وربت الحاج على كتفه وناولته ميسم الشيشة ، فتناولته وسحبته بيده ثم شد منه نفساً طويلاً وقال :

- أصل يا معلم .. أنا تاجر في السوق من صغرى وأعرف أن البيعة التي تبدأ هكذا لا يمكن أن تتم .. تصدق بالله يا حاج .. الحاج متولى لا يناقشني في شيء آتية به .. إنه يعرفني ويعرف أنني تاجر ابن تاجر وعملي كله بالأمانة والشرف ..
- طبعاً طبعاً .. أنعم وأكرم بك ياسى توفيق .. تشرفنا بمعرفتك .. بس أصل الأدوية تخيفنى .. ولكن ما دمت أنت ابن كار وتفهم في الأدوية فلا مانع من الكلام ..

فدس توفيق يده في جيبه الداخلى وأخرج علبة حقن وقال :

- تصدق بالله يا حاج .. هذه العلبة فيها تسع حقن بنسولين حرّ وارد إنجلترا ..
أدفع لك ألف جنيه إذا أتيتنى بمثلها من القاهرة كلها بعشرة جنيهات ..
فتناول الحاج العلبة ونظر فيها وفتحها ونظر داخلها وقال :

- صحيح تسع حقن ..

ثم نظر إلى حلمى وقال :

- تعال يا ولد شوف ..

وتناول حلمى العلبة ونظر فيها نظر خبير ، وأخرج منها حقنة ونظر فيها من خلال

النور وقال :

- بنسلين حرّ يا معلم .. فايف سى سى معتبر .. ولكنه صناعة مصر ..
- فنظر المعلم إلى توفيق معاتباً وقال :
- يعنى ليس صناعة الخارج كما تقول ..
- لا يا معلم .. صناعة الخارج ولكنه تعبئة مصر
- آه .. مثل البيسى كولا يعنى .. الاسم فقط من الخارج والباقي شيرا الحثيمة ..

- يا معلم كيف تقول ذلك ؟ .. أين البنسلين وأين البيسى ؟
- طيب قل لى .. وعندك كم علبة من هذه ؟ ..
- المهم أن نتفق على الثمن أولاً .. وبعد ذلك أقدم لك ما تريد ..
- عندك كثير ..
- عندى عينات فقط ، وبمجرد أن نتفق على السعر تكون البضاعة عندك فى بحر ساعة ..

فقال أحد المقاطيع :

- ولكنك أتيت بسيارة نقل ..
- لا .. هى سيارة ستيشن ملك لصديقى .. إنه ينتظرنى فيها ..
- فقال المعلم وهو يقلب العلبة فى يديه :
- قل أنت السعر الذى يرضيك ..
- كللك نظريا معلم ، وأنت سيد العارفين .. إننى أعرض عليك (ذهب ..
- ذهب) أربعة وعشرين قيراط .. اسأل عن حالة السوق .. البلد ليس فيها بنسلين .. من شهر لا يوجد بنسلين .. القصر العيني نفسه ليس لديه بنسلين ..

- طيب ، يعنى . . . ما السعر الذى تطلب ؟ . . .
- بحسب الكمية التى تريد . . قلت لك إن ثمن الحقنة الواحدة فى السوق الآن من ٥٠ قرشاً إلى جنيه ، وأنا أبيعها لك بنفس السعر الذى أبيع به للحاج متولى :
- ٣٠ قرشاً ، وأنت تبيعها كما تريد . . .
- تسمح لى أن أقول لك إنك ولا مؤاخذه ضعيف بعض الشيء فى التجارة ؟ . . .
- لماذا يا معلم ؟
- لأنك تصور أنى سأبيع هذه الحقن فى أجزاخانة رسمية : أشتري بثلاثين وأبيع بخمسين . . .
- والله هذا هو السعر الذى أبيع به للحاج متولى . . .
- يعنى الحاج متولى عنده أجزاخانة ؟ . . أليس تاجر سوق سوداء مثلنا ؟ . . .
- دعنا نتكلم بصراحة ياسى توفيق . . ليكن عندك شىء من التقدير . . أنت غشيم وجديد على السوق السوداء يا حضرة . . إننى أشتري الشيء بعشرة وأبيعه لموزع بعشرين . . والموزع يعطى موزعاً آخر بثلاثين . . وهكذا حتى تصل الحقنة إلى المريض بخمسين . . أليس كذلك يا إخواننا ؟ . . .
- طبعاً يا معلم . . هذه هى الأصول . . .
- فقال توفيق :
- معنى ذلك أنك تريد أن تدفع فى الحقنة عشرة قروش ؟ خير لى فى هذه الحالة أن أبيعها إلى الأجزاخانة رأساً . . .
- وما الذى منعتك أن تفعل ؟
- الذى منعى أنى لا أقبل فى الحقنة أقل من ٣٠ قرشاً . . .

فقال أحد الأعوان :

- يا معلم دعه يذهب ، هذا رجل أتى يتسلى . . .
- فنظر إليه المعلم ثم ابتسم وقال :
- وأنت ياسى حلمى . . كم تدفع فى الحقنة ؟
- خمسة قروش . . فى حياتى لم أدفع فى حقنة البنسلين أكثر من شلن . .
- فنظر إليه توفيق طويلاً ثم قال :
- شوف يا معلم . . القهوة وشريناها . . السلام عليكم . .
- انتظر قليلاً . . كم حقنة تستطيع أن تعطينى ؟
- كل ما تريد . . خمسة آلاف . . عشرة آلاف . .
- لهذه الدرجة ؟ . .

- إنك تكلم تاجراً مليوناً . .

- فنظر الحاج إلى برهوم نظرة متسائلة كأنما أراد أن يسأله عن شىء . . وهز برهوم رأسه هزاً لم يلمحه توفيق . . وفهم المعلم من إشارة برهوم أن السيارة التى تنتظر غير بعيد عن البيت فيها خمسة صناديق كبار . . فنظر إلى توفيق وقال :
- أشتري الحقنة بعشرين قرشاً . .

فصاح توفيق :

- يا معلم . .
- دعنا نخلص ياسى توفيق . . عشرون قرشاً . . بعث ؟
- فقال توفيق فى عناد :
- قلت ثلاثين قرشاً . .
- فضحك المعلم وقال :

- تعال يا توفيق تعال .. أنت مازلت صغيراً ولكنك طموح تريد أن تصل إلى قمة الثروة في غمضة عين . كلنا كنا مثلك في سنا ولكن الزمن علمنا أن لكل شيء وقته وحدوده .. حتى السوق السوداء لها حدودها .. نحن لا نسرق في السوق السوداء .. نحن نشترى ونبيع .. نشترى رخيصاً ونبيع غالياً .. ولكن بحدود ، بقانون .. نكسب ١٠٠٪ ، ٢٠٠٪ ، ٣٠٠٪ ، على قدر ما نستطيع .. ولكن السرقة .. لا ! .. تسرق من مخازن ؟ لا .. هذا عمل لصوص .. مها قال الناس فينا فنحن تجار .. تجار محترمون .. لا نستطيع يا ابني أن نبيع حقبة البنسلين بخمسين قرشاً في حين أن ثمنها الحقيقي خمسة قروش .. هناك أصول .. هناك أيضاً إنسانية .. أليس كذلك ؟ .. ستحصل على ما يرضيك .. (بس هدى أخلاقك .. روق دمك) ..

وجعل يلاطفه ويهون عليه الأمر ، والآخريزداد قلقاً وعناداً . وطال الأخذ والرد ، وانتقل مبسم النارجيلة من فم لقم عدة مرات ، وفرغت القهوة وجاءت قهوة ثانية ، ثم ثالثة ، والمعلم كالقط متلذذ بتعذيب هذا الفأر ، وفي أثناء ذلك خرج برهوم ثم عاد وقال وهو عند الباب :

- يا معلم حضرة الباشمهندس ينتظرك في الخارج .

- قل له يدخل ..

- إنه متعجل يقول إن الأمر مهم جداً ويريد أن يقول لك كلمتين ..

ونظر المعلم إلى توفيق وقال :

- دقيقة واحدة .. هذا مهندس العمارة الجديدة .. رجل معقد جداً ومشاكله

لا تنتهي .. عن إذتك .. أكلمه دقيقة وأعود ..

وبدا الضجر على توفيق ، وترك المعلم ومضى ..

وعند الباب ، وفي ركن الدهليز قال الحاج لبرهوم في همس :

- مازال صاحبه والصناديق في السيارة ؟ ..

- نعم ، وقد بدأ يضجر ..

- خذ .. هذه ٥٠٠ جنيه ، قل له إننا اتفقنا وهذا هو العريون كما اشترط

صاحبه . وقل له يأتي وهاتوا الصناديق معه .. إذا وجدتم منه معارضة فهاتوه بالقوة .. حاذروا من أن ينتبه أحد ..

وعاد إلى توفيق وهو يقول :

- قلت لك مهندس معقد .. لا يستطيع التصرف وحده أبداً ..

وبعد لحظة صمت :

- صلِّ على النبي ..

- اللهم صلِّ عليك يا نبي ..

- تقسم البلد نصفين .. آخذ منك الحقنة بعشرين قرشاً .. لكى نبيعها بخمسة

وعشرين والناس تشتريها بثلاثين .. ثمن معقول وفيه رحمة ، أليس كذلك ؟ ..

فنظر إليه توفيق وقال :

- عشان خاطر ك بخمسة وعشرين .. هذا آخر كلام ..

وعادت المناقشة مرة أخرى وحمى وطيسها ، وغضب توفيق ووقف ثم جلس ،

ثم غضب ووقف ثم جلس ، والمعلم يطاوله ويلعب به ..

وبعد نحو ربع ساعة فتح الباب ودخل فرج صاحب توفيق ومن خلفه رجلان

يحملان صناديق وضعها أمام المعلم . وذهل توفيق وهو يتأمل صاحبه ثم قال له

غاضباً :

- ماذا أتى بك ؟

- ألم تتفقوا .. قالوا لى ذلك وأعطوني ٥٠٠ جنيه عربوناً ..
 - من قال لك إننا اتفقنا ؟ ..
 ودارت عين فرج ثم أشار إلى برهوم وقال : هذا الرجل .. ولم يتم كلامه ، لأن
 الحاج قاطعه وقال لأعوانه بصوت عال :
 - اقبلوا الباب يابهائم ..
 وأقبل البهائم الباب وأحكوا رتاجه . وضحك الحاج وقال :
 - ألم نتفق ياسى توفيق ؟
 فقال توفيق غاضباً :
 - متى اتفقنا ؟
 - ألم أعرض عليك عشرين قرشاً للحقنة ؟ إذا لم يعجبك هذا العرض فقد
 سحبت ، ونبدأ الكلام من جديد ..
 ثم نظر برهوم إلى فرج وقال :
 - هات العربون الذى أعطيتك إياه ..
 - إنه ليس معى .. وضعت فى السيارة ..
 فقال المعلم :
 - فتشوا السيارة ..
 فقال برهوم :
 - فتشناها .. ليس فيها شىء .. النقود معه ..
 وقال توفيق وقد بدأ الخوف يدخل قلبه :
 - ما هذا يامعلم ؟ أهى عافية ؟
 ولم يلق المعلم بالا إلى توفيق بل قال لبرهوم ويسوى :

- خذوا منه النقود بالقوة ..
- وقال برهوم لفرج :
- هات النقود بالذوق ..
- يعنى إيه بالذوق ؟ ..
- يعنى هكذا ...
- ثم أطبق بكلتا يديه على رقبتة ولوى ذراعه ودس يده فى جيبه وأخرج ربطة الأوراق المالية ، وناولها المعلم :
- نقودك يا معلم ..
- تم ذلك كله فى لحظات ، وقال توفيق وهو فى غاية الغضب :
- يا معلم .. هذه ليست (أصول) ..
- لا .. هذه هى الأصول .. فى عملنا هذا تلك هى الأصول .. ما دمت تريد أن تبيع حقنة البنسلين بخمسين قرشاً فلا يحق لك أن تتكلم عن الأصول ..
- ثم قال بعد لحظة :
- (خليك) عاقل .. إن ما فعلناه خير لك يا غشيم .. هذه الصناديق مسروقة كلها من مخازن المستشفى الذى تعملان فيه ..
- وقال حلمى :
- مكتوب عليها « وزارة الصحة » ..
- وقال المعلم وهو يشد نفساً من الشيشة :
- إذا لم تعجبكم هذه المعاملة .. سلمنا البضاعة لأصحابها .. يعنى لوزارة الصحة .. شىء بسيط .. نكلم البوليس الآن إذا أردت ..
- وضحك حلمى وقال هازلاً :

- وتأخذ الحلاوة من البوليس ..

وقال له المعلم :

- بدلا من هذه الرقاعة ، افتح الصناديق وأحص ما فيها بالضبط . أريد أن

أعرف كم حقنة في هذه الصناديق ، وكيف هي معبأة : في علب صغيرة
أو خراطيش ..

وبينا كان برهوم وحلمى يفتحان الصناديق ويفحصان ما فيها كان قلب توفيق

يدق سريعاً وقد انعقد لسانه ..

ونظر الحاج إلى فرج وقال :

- وحضرتك تفضل ... تفضل اجلس .. لماذا تظل واقفاً؟ ..

٢

وفرح الرجلان من المهمة وقال حلمى :

- تمام يا معلم .. كله مضبوط .. في كل صندوق ٢٠٠٠ حقنة .. في

الصناديق الخمسة ١٠,٠٠٠ حقنة .. حاجة محترمة ..

وقال برهوم :

- نذهب بها إلى المخزن الخاص فوق ؟

- لا .. ضعها كلها هنا .. ورأى .. اقبلها أمامى ..

ثم عاد يتحدث مع توفيق وعينه على برهوم وحلمى مخافة أن يسرقا شيئاً ، وقال

لتوفيق وفرج :

- آنستمونا ..

وظل توفيق وفرج واجمين ، فعاد المعلم يقول لها :
 - الآن نستطيع أن نتكلم .. لانتخافا شيئاً .. سنعطيكما حقكما .. نحن تجار
 ونعرف شرف المهنة ..

وقال فرج وهو يحاول التظاهر بالثبات :
 - شوف يامعلم .. هذه كلها أساليب نعرفها .. لا تظن أن ذلك كله
 يخيفنا .. حقنا سنأخذه ..
 - عليك نور .. حقتك سنأخذه .. يعجبني ذلك .. سترى أنني أعامل الناس
 بغاية العدل والإنصاف ..

وقال توفيق وهو يبلع ريقه :
 - أنت كلك بركة يامعلم .. والله لقد شكرك الحاج متولى شكراً كثيراً .. وقال
 إنك تاجر تعرف الأصول ..
 - رأيت .. إني أعرف الأصول .. بهذا أنا مشهور بين كل التجار ..
 وقال توفيق :

- زى بعضه .. موافق على عشرين قرشاً في الحقنة .. نريد أن نفرغ من هذه
 العملية ..

فقال الحاج وكأنه لم يسمع ما قال :
 - شوف ياسى توفيق .. الأصول عندي أن أعطيك ثلاث مرات قدر
 ما دفعت في البضاعة .. ثلاث مرات ! تصور ! .. ليس في الدنيا تاجر يدفع
 بهذه الصورة ..

- يا حاج .. لقد اتفقنا على عشرين قرشاً في الحقنة ..
 - أنت لم ترض بالعشرين قرشاً .. فكيف تقول إننا اتفقنا ؟ ..

- معلّمس .. هات الثمن على هذا الأساس .. (خلينا) نخلص ..
 - لأ .. نتعامل على قاعدتي أنا .. ثلاث مرات قدر الفاتورة .. أين
 الفاتورة ؟ ..

- يامعلم .. لا حاجة لهذا الكلام .. هات ماتريد ودعنا نمضى ..
 - إذن .. فأنت لم تشتري هذه البضاعة ..
 اشتريتها ولكن الفاتورة ليست معي ..
 - مادمت لا تملك فاتورة فأنت لم تشتريها ..

وصاح فرج :

- يعني سرقناها ؟ ..
 - عليك نور .. تبي مسروقة ..
 - على أى حال هذا ليس مهماً .. البضاعة عندك ونريد الثمن ..
 - كما قلت لك : البضاعة المشتراة ندفع ثلاثة أضعاف ثمنها .. أما المسروقة
 فنعطى صاحبها بقشيشاً ..

فقال فرج متزعجاً :

- بقشيش ازاي يامعلم ؟
 وأضاف توفيق متوسلاً :
 - يا حاج .. من فضلك .. عندك بضاعة ثمنها على الأقل ٥٠٠٠ جنيه ..
 - ليس المهم ما تساويه .. المهم ما دفعته أنت فيها ..
 - هذا شغلنا نحن ..
 - وشغلي أيضاً .. أنا الذى سأدفع الثمن ..
 فقال توفيق فى يأس شديد :

- يارب ماذا صنعنا ؟

وبكل سخرية قال المعلم :

- خير يا ابني خير .. عملتم كل خير .. هذه الحقن ستشفى ألوف المرضى ..
أليس هذا خيراً ؟ .. سأعطيكم بقشيشاً يعجبكم !

- يا حاج .. لا داعي لكلمة بقشيش هذه .. نحن تجار مثلك ..

- لأ .. أرجوك .. تجار غير ممكن .. و « مثلي » هذه لا تعجبني .. لقد

اتفقنا على أنكما لصان ..

- هذا ليس كلاماً ياعلم ..

- إذن بلاش لصوص .. نقول عيال .. بلاش بقشيش .. نقول مصروف

جيب .. كله واحد .. لا لزوم للزعل .. هدى أعصابك إذن وتعالى تتكلم ..

فقال فرج :

- أى كلام تتكلمه يا حاج .. البضاعة أخذتها وتريد أن تفرض علينا الثمن

الذى تريد .. فقال المعلم ساخراً :

- ألم أقل إنكم عيال ؟ .. عيال تريدون أن تكونوا تجاراً على آخر الزمان ؟

- انظر يا معلم .. نريد أن نفرغ من هذه العملية الآن .. كم تريد أن تدفع ؟

- أدفع بقشيشاً .. مكافأة .. أما الثمن فتوقف على الفانورة ..

- وما مبلغ هذا البقشيش ؟ ..

- سأكون كريماً جداً معكما .. مادمتم قد اعترفتم بأن هذه بضاعة مسروقة ،

ومن مال الحكومة أيضاً ، فإننا يمكن أن نتفاهم على هذا الأساس .. ما رأيكم في

خمسین جنيهاً ..

فصاح برهوم ساخراً متصنعاً الاستنكار :

- خمسون جنبياً بقشيش . . .

وكان الدهول التام قد هبط على فرج وتوفيق فظلا واجمين كصخرتين ، حتى نههما صوت المعلم الأجنس يقول :

- مالكما قد سكتما ؟ .. هل هذا سكوت الرضا ؟ ..

قنهض فرج وهو يقول :

- لا نريد شيئاً يا معلم .. غلظة ووقعنا فيها .. قم يا توفيق .. تعال والعوض على الله ..

فقال المعلم :

- هكذا تتركون خمسين جنبياً ؟ .. خمسة وعشرون لكل منكما ؟ .. مالها والله خمسون جنبياً في عملية لم تكلفكم شيئاً ! ..

ونهض توفيق وقال :

- لا لزوم لها .. وفر على نفسك مالك .. سنعرف كيف نتحدث مع المعلم متولى عطا ..

- تخوفنى بمتولى ؟ .. هذا تاجر عبيط .. لا بد أنكم ضحكتم عليه كثيراً .. واتجها نحو الباب ، فقال المعلم بصوت عال ولكن في هدوء وسخرية :

- لا يمكن أن تخرجوا إلا بالقشيش ..

- لا نريد يا معلم .. لا نريد شيئاً ..

- غير ممكن أن تخرجوا هكذا دون إكرامية ..

- إذن هات ما تريد وخلصنا ..

- حسناً .. تعال إذن لتأخذ نقودك ..

وعاد توفيق ، فأمسك به المعلم من يده وأجلسه وقال :

- مادمتا قد اتفقنا فإن لى طلباً ..

- كيان !

- طبعاً .. الشغل له أصول ..

وقال حلمى :

- اسمع يا عبيط .. اسمع كلام المعلم .. إنه معلم كبير وأوسطى فى الكار ..

خذ منه (دروس .. دروس مجانية) ..

فنظر فرج إلى حلمى من فوق لتحت وقال ساخراً :

- أرى أن هذه الدروس لم تنفعك أنت .. طول عمرك تأخذ هذه الدروس ،

وهذا حالك وتلك ملابسك ..

فأراد حلمى الدفاع عن نفسه ، ولكن المعلم قاطعه قائلاً :

- أصله تلميذ خايب .. ياما علمته .. ولكنه بغل بعيد عنك ..

وبعد لحظة صمت :

- شوف ياسى توفيق .. الخمسون جنبها هذه لاشيء .. ستعوض فيما بعد

ما خسرتة معى هذه المرة .. إننى كما قال لك سى حلمى معلم كبير ، وعلى يدى

هاتين تخرج أسطوات بنوا نصف عمارات مصر الجديدة .. تعلم منى واعتبر هذه

المررة درساً .. فهمت ؟ ..

فقال توفيق فى ضجر :

- فهمت يا حاج .. هات النقود ..

- حسناً ، فقط لى طلب واحد ، طلب بسيط ..

- مازالت لك مطالب ؟ .. يانهار أسود يا جدهان .. أى يوم مهيب

هذا ؟ ..

- اسمع بس .. هل قتم بعمليات كثيرة كهذه ؟ ..
 فسكت توفيق ، فنظر المعلم إلى من حوله ونهرهم قائلاً :
- ماذا تعملون هنا ؟ .. روحوا لأعمالكم .. اذهبوا كلكم خارجاً واقفلوا الباب .. ابق هنا يابرهوم ..
- ولم يبق إلا برهوم وكذلك بسبوني الخادم والمعلم وتوفيق وفرج ، قال المعلم على توفيق وقال في صوت ودود :
- لم تقل لى .. هل قتم بعمليات كثيرة من هذا النوع ؟ ..
- يامعلم هات القرشين واتركنا ..
- القرشان ستأخذهما .. ولكن أريد أن أحملك وأحمى نفسى ..
- كيف ! .. لا أفهم ..
- سأفهمك .. ليكن بالك طويلا معى .. إن سرقة خمسة صناديق فيها عشرة آلاف حقنة في وقت يشح فيه البنسلين في السوق عمل لا يقوم به إلا ساذج أو عييط .. اسمع منى كلامى لآخره ، وافتح أذنك جيداً .. كما قلت لك إننى معلم كبير وأريد أن أحملك وأعلمك .. إن يدك على كتز ونستطيع أن نجنى منه الذهب إذا استمعت إلى ..
- لا يامعلم .. توبة .. هذه آخر مرة ..
- ولو .. اسمع منى .. إنهم لا بد أن يكتشفوا هذه العملية ..
- لا أظن .. عندهم كثير .. والمخازن ملاءى إلى السقف ..
- غير معقول .. مادمتم تقومون بهذه العمليات فلن يبقى فيها ياذن الله شىء .. ولو سلطكم الله على جبل المقطم لزال في يومين ..
- يامعلم .. عيب ..

- لا تغضب يا ابني .. إنني أعلمك .. قل لي : كم بقى فى المخزن ..
 صارحنى أرجوك ..
 فقال فى تملل :
 - كثير ..
 - ربعه ؟
 - أكثر قليلا ..
 - إذن لا بد أن يقبضوا عليكم قريباً .. مسألة بهذا الشكل لا تظل مستورة
 طويلا ..
 - هذا شأننا ونحن نعرفه ..
 - ألم أقل لك إنك جديد فى الصنعة ؟ .. كيف تقول إن هذا شأنكم وأنا
 الآن شريك معكم ؟ .. إذا قبضوا عليكم الآن ، بعد ساعة تكون المباحث
 عندى .. وأنا لأحب المباحث ..
 فقال فرج فى سأم شديد :
 - ماذا تريد منا ياأختي ؟ .. ماذا تريد ؟ .. البضاعة ومستعدون أن نتركها
 لك دون مقابل .. فإذا تريد منا الآن ؟ ..
 - ولا حاجة .. مجرد سلامتكم .. أريد أن أحميكم ..
 - تحمينا ؟ .. بعد أن نهنتنا ؟ ..
 - صبرك يا ابني صبرك .. أنت لم تفهم منى شيئاً .. اهدأ واسمع منى .. نحن
 شركاء فى عملية واحدة .. وإذا لم نتعاون هلكتنا ..
 - شركاء ؟ .. أى شركة هذه ؟ ..
 - دعك من الهزل الآن واسمع .. بصراحة إننى الآن بين أحد أمرين : إما أن

تعملا ما أطلبه منك أو أبلغ البوليس . . هذه هي المسروقات لم نمس منها شيئا ،
وإذا شئتم اتصلنا الآن ببوليس النجدة وقلنا لهم الحقيقة : أنتم سرقتم هذا وأردتم
بيعه لنا ، ونحن لا نريد أن نشترى مسروقات من مال الحكومة . . ستكون هذه
خدمة كبيرة يذكرها لنا البوليس بالخير . .

فقال توفيق متحديا :

- أنت لن تفعل هذا . .

- وماذا يمنعني ؟

- الطمع . . الطمع في الكسب . . المعلم محمد راغب عبد العال يكون في
يده كتر كهذا ويبلغ البوليس ! . . لمن تقول هذا الكلام ؟ . .

فقال الحاج في عناد وغضب :

- إذن سترى . . ثلاثة بالله العظيم لأبلغن البوليس . . برهوم . . هات بوليس
النجدة . . عندك التليفون تحت هذه الكراسي . .

وقفز برهوم كالشيطان وجرى نحو الكرسي الذي أشار إليه المعلم ، وبدأ في إدارة
القرص . . فهب توفيق واقفاً وقال صارخاً :

- ماذا تريدون منا ؟ . . ماذا تريدون ! . .

وقال الحاج في هدوء :

- هكذا أحسن . . دع التليفون يا برهوم . . أريد منك شيئا بسيطا جداً . .
هو أن نخفي الجريمة . .

- إنها مخفية . . لا يعلم بها أحد غيرك . .

- الحكومة لا بد أن تعلم . . لا بد أن يكتشفوا هذه السرقة الكبيرة . . هذه
خمس صناديق ، لاعبة واحدة . . لا بد أن نظمس كل المعالم . . لا بد أن نخفي

هذه السرقة وكل السرقات السابقة . .

- وكيف؟ . .

فقال المعلم ضاحكاً في سخرية :

- تسألني كيف؟ بالطريقة التي تعملونها دائماً . . بالطريقة البسيطة التي نقرأ

عنها في الجرائد كل يوم . . ألا تعرفها؟ . .

- لا . . لا أعرفها . .

- بل تعرفها (ونصف) . . كل الذين يسرقون مال الحكومة يعرفونها

مثلك . . إنها طريقة الحريق : تسرق وتسرق وتسرق ، حتى إذا تخلخلت المخازن

وبدأ بوضوح أن الأمر سيفتضح ولاشك تشعل النار في البقية الباقية من المخازن ،

وتحرق النار كل شيء حتى آثار الجريمة . . وتوضع المسؤولية كلها على النار . . ومن

الذي يحقق مع النار؟ . . إنها سارة العيوب وحالة الأسية .

فقال فرج في دهشة بالغة :

- تحرق المخازن؟ ! هذه خسارة كبيرة . . مازالت ملأى . . لسه بدرى . .

فقال المعلم ضاحكاً :

- آه . . يالك من ساذج . . تريد أن تسرق كل شيء أولاً ثم تحرق

الجدران؟ . . أنتظن أن المحقق مغفل مثلك؟ . . إنه يفهم أكثر مما تظن . . سيفهم

دون شك سر الحريق في هذه الحالة . . وإذا فرضنا أن التفتيش جاء قبل

الحريق؟ . .

- لم أقصد ذلك . . أردت أن أقول إن ذلك خسارة . . مازالت المخازن

ملأى بالأدوية والأدوات والآلات الطبية . . أشياء تساوي مئات الألوف . .

- أحسن . . أحسن لنا . . بهذا الشكل لن يعرف أحداً ماذا أخذتم وماذا تركتم . .

- ولكن هذه عملية فظيعة جداً .. إنها جناية ..
- وما فعلتموه .. أليس جناية ؟ ..
- يا معلم ، الفرق كبير بين أخذ صندوقين ثلاثة ، وحرق مخازن ثلاثة أذوار ..
- ياسى توفيق .. ألم تنظر إلى وجهك فى المرآة ؟ .. هل هذه سحنة إنسان
- سرق صندوقين ثلاثة ؟ هذه سحنة لص معتاد السرقة .. ولا أشك فى أنكما
- لا تدعان يوماً يمر دون أن تخرجا بما فيه القسمة ..
- لا لزوم لهذا الكلام يا معلم ..
- لا .. له لزوم لأنكم عيال تريدون أن تعبثوا بى .. إبنى آمركم الآن
- وعليكم الطاعة . أنا أحميكم وأحمى نفسى ..
- فقال فرج :
- قبل أن أحرق المخازن أفضل إعادتها إلى مكانها ..
- فقال المعلم :
- لا مانع عندى .. بشرط أن يعيدها إلى مكانها رجال بوليس النجدة ..
- موافق ؟ ..
- وبعدين يا معلم ؟ .. كيف الخروج من هذا المأزق ؟ .. كيف ؟
- الطريق الوحيد هو الذى قلته لك .. النار ..
- لا أحب النار ..
- هى لأمثالك رحمة ..
- وسادت لحظات من الصمت ، ثم نهض المعلم وقال فى حزم :
- هل سنظل هكذا إلى الصباح ؟ .. مالك واجماً هكذا أنت وزميلك كأنكما
- تلميذان لم يحفظا الدرس .. تحرك أنت وهو .. المخازن تحرق الليلة ..

- دعنا نفكر بالحاج ..
- أنتما عاجزان عن التفكير .. إننى أعرف نوعكما من الناس .. إذا تركتكما وشأنكما فمن المؤكد أنكما سترميان بنا فى مصيبة ..
- فقال توفيق ، وكان قد أدرك حقيقة الموقف :
- حسناً .. سننفذ ما تريد ..
- وبعد التنفيذ أعطيكما الخمسين جنيهاً ..
- وحتى هذا المبلغ الضئيل مرهون بتلك الجريمة الهائلة ..
- بالنسبة للمجرم لا توجد جريمة هائلة وأخرى غير هائلة .. كلها جريمة ..
- والذى يقتل إنساناً ، مجرم كالذى يقتل عشرة ..
- حسناً .. دعنا نذهب ..
- فى أى مخازن تعملان ؟
- مخازن الوحدة الصحية الجديدة ..
- هناك .. وراء السكة الحديد ! ..
- نعم ..
- فنظر الحاج إلى برهوم وقال :
- أين الولد شرارة ؟
- فصاح برهوم : شرارة .. واد يا شرارة ..
- وانفتح الباب ودخل إنسان ضخم كأنه كتلة صخر لها رأس .. كان يلبس جلباباً قديماً فوقه معطف أصفر حمل قذارة الدنيا كلها .. سار يتدحرج وهو يتنفس فى صعوبة حتى وقف أمام الحاج فقال له :
- تعرف الوحدة الصحية الجديدة وراء السكة الحديد ؟ ..

- أيوه . . عند قهوة شلى . .

- طيب . . الساعة ٨ تكون هناك في انتظار الأخوين . . ستقومون معاً بحرق

مخازن الوحدة . . أنت تعرف كيف . .

فنظر شرارة إليها وقال :

- معكما المفاتيح ؟

فقال المعلم :

- أجل معهما . . معهما كل شيء . . لا تسألها عن شيء . . اسألني أنا ، وافعل

ما أمرك أنا به . . تستعد بأدوات الحريق . . المرة الماضية لم يكن الحريق كاملاً

وكدنا نذهب في داهية . . هذه المرة استعد تماماً . . الساعة الثامنة سيقابلانك في

المقهى . . مقهى شلى . . تذهبون معاً وتتمون العملية . . عندما تصبح المخازن

شعلة نار واحدة . . تعطى الأخوين خمسين جنيهاً . . كل واحد خمسة

وعشرون . . خذ . .

ووضع يده في صدره وأخرج حافظة نقوده ، وعد منها أوراقاً مالية ناوفاً

لشرارة وقال :

- خذ . . هذه خمسة وخمسون . . خمسة مصروفات لك . . والباقي لها . .

إذا لم يحضرا في الساعة الثامنة تتصل ببوليس النجدة وتقول إن . . .

والنفت لبرهوم فناوله هذا بطاقتين شخصيتين ، ودهش توفيق وفرج عندما

رأيا بطاقتيهما في يد المعلم وجعلا يتحسان جيوبهما فقال الحاج ساخراً :

- نعم . . هما بطاقتاكما الشخصيتان . . أخذناهما للاحتياط . . ستأخذناهما

بعد العملية . . لا تخافا . . الدار أمان . .

ومضى متابِعاً حديثه مع شرارة :

- إذا لم يحضرا إلى القهوة في تمام الساعة الثامنة تذهب توأ إلى نقطة البوليس وتبلغ الضابط أن المدعو (يقرأ من البطاقة) توفيق زكى غراب ممرض بوزارة الصحة وفرج غالى يوسف ممرض أيضاً بوزارة الصحة سرقا خمسة صناديق حقن بنسلين وأرادا بيعها لنا فحجزناها وأبلغنا البوليس . . قل لهم يرسلون معك قوة من بوليس النجدة . . سنضع الصناديق فى ناحية من المخازن سيدلك عليها برهوم . . سيكون فى انتظارك هنا . .

فقال شرارة وهو يشعل سيجارة :

- الاسمين ثانى يا معلم . .

فقال المعلم :

- اكتبها له يا برهوم . . .

ثم عاد يقول لشرارة :

- هذه شغلة مهمة جداً . . اعمل كما أقول لك بالضبط . . إذا أتيا قتم

بالحريق وأعطيتها النقود . . إذا لم يأتيا حتى الثامنة والدقيقة الخامسة تذهب إلى البوليس رأساً . .

ثم نظر إلى فرج وتوفيق وقال :

- المسألة ليس فيها لعب . . مفهوم . .

- والبطاقات ؟ . .

- غداً صباحاً يأتى واحد منكما ليأخذهما . .

وقال لها شرارة وهو ينظر إليها بعينين جامدتين :

- مفهوم ؟ . . المسألة ليس فيها لعب . . أنا لا أعرف اللعب . . سمعتم كلام

المعلم ؟ . . وكلام المعلم لازم يمشى . .

وقال الحاج :

- لا تخافوا . . شرارة معلم . . معلم أصيل . . عمره اثنتان وأربعون سنة . .
تسع عشرة منها في السجون وأقسام البوليس . . يعنى تستطيعون الاطمئنان تماماً
إليه . .

وصرفهم جميعاً كأنه ملك يأمر وينهى . . ثم أتاه بسيوفى بنارجيلة جديدة
فأصلحها وناوله الخرطوم ، ثم أتى له بقهوة . . وعندما خلا المكان تماماً قال له :

- الست زكية أتت ؟ . .

- من نصف ساعة . .

- وهل سمعت شيئاً من هذا الكلام ؟

- لا . . دخلت ونامت على الفور . . إنها متعبة . .

وعاد الحاج إلى مجلسه ، فأخذ أنفاساً من الشيشة ، وشرب القهوة . ثم نهض
في تكاسل ونظر إلى الباب الكبير فاطمأن إلى أنه مقفل . . ثم صعد السلم في
هدوء . .

٣

بينما كان المعلم يصعد درجات السلم دخل حلمى من الباب ونادى : معلم . .
معلم راغب . . ونظر إليه المعلم في استنكار وقال :

- ألم أقل لك ألف مرة ألا تتهجم علىّ بهذه الصورة في وقت راحتى ؟ . .

- أيوه يا معلم . . لكن فيه مسألة مهمة . .

- ليست هناك مسائل مهمة . . شوف شغلك . . اذهب . . امش . .

ونظر المعلم إلى حلمى نظرة يتطاير منها الشرر ، فَرُعب المسكين وخرج مسرعاً ، وعندما أغلق الباب ووقف خارجه بنى ممتقع اللون وقد تملكته الحيرة ، فقال له برهوم :

- ألم أقل لك أن تترك الرجل فى حاله ؟ ..
- لكن المسألة مسألة ابنه .. ابنه طارق مريض جداً وحرارته عالية ..
- ألا يعلم هو ذلك ؟ ..
- قلت له فى الصباح فلم يلتفت إلى .. ولكن الولد الآن تعبان .. اذهب أنت يا برهوم .. الموضوع خطير ..
- خطير أو غير خطير .. الحاج الآن فى ساعة راحته كما قال .. ومن يجرؤ على الدخول عليه الآن يفقد عمله فى الحال .. أنت تعرف ذلك جيداً .. تصرف !
- كيف أتصرف ؟ ..
- هات له الطيب ..
- الدكتور وصفنى الذى نذهب إليه عادة لا يتحرك إلا إذا أخذ ثلاثة جنيهاً فى يده .. وليس معى الآن ثلاثة قروش .. ادفعها أنت ..
- مستحيل .. بدون إذن المعلم مستحيل .. ألا ينتظر هذا الدكتور وصفنى ؟ ..
- يا أحمى طول عمره ينتظر .. إنه رجل طبيب وحكيم عظيم .. فى الأول كان لا يتأخر ولكن المعلم لا يدفع الأتعاب أبداً .. تصدق بالله إننى دفعت له من جيبى فى المرة الأخيرة ..
- غريبة أمر المعلم .. أليس طارق ابنه .. هل عنده أعز من ابنه ؟ ..
- نعم .. الفلوس والعمارات والسكك زكية ..

فهز حلمي كفتيه وقال :

- هو حُرُّ .. ماذا أفعل ؟ ..

فقال برهوم :

- طيب وأم الولد .. أليس معها أجر الطبيب ؟

- معها ، وذراعاها مثقلان بالمسوغ .. ولكنها تريد أن يدفع هو ..

- انظر يا حلمي .. إذا كانت حالة الولد تستحق عرضه على الطبيب فإذهب

إلى أمه وقل لها وهي ستدفع ..

فهز حلمي كفتيه وأشعل سيجارة وقال :

- ليس أمامي إلا هذا الحل ..

وبعد لحظة صمت :

- إنها تسألني إذا كان الحاج قد تزوج زكية ..

- والله إن أمرها لعجيب ! .. الدنيا كلها تعرف أن الحاج تزوج زكية منذ

أكثر من سنة .. وثلاثة بالله العظيم إن زوجته القديمة - أم طارق - تعرف

ذلك ..

- ولماذا تسألني ؟ ..

- هذا لوم نساء .. قطع الله دابرهن جميعاً ..

- ولكن قل لي يا حلمي .. هناك سؤال أردت أن أسألك إياه من زمن ..

كيف يتزوج المعلم المعلمة زكية وهو يعلم أنها لصة بنت لص ؟ ..

- لأنها تأتيه بالذهب .. زكية تعرف كل تجار السوق السوداء .. كل

أسرارهم عندها ، وأى شيء يشتريه الحاج تبعه له بعشرة أضعاف ثمنه .. إنها بنت

المعلم خضير الذي أدخل السوق السوداء في مصر ..

- ولهذا يتزوجها ؟ .. انحص ! ..

- انحص عليك وعلى وعلى أمثالنا .. نحن طول عمرنا شحاذون .. ولدنا

شحاذين وسنموت شحاذين .. وهذه المرأة إذا أمسكت بقبضة تراب استحالت ذهباً .. ولكن ، أقول لك الحق ؟ .. أقطع ذراعى أنها أشرف ست رأيتها فى حياتى .. إنها تعيش بين الرجال ، وطول النهار ، واحد داخل وواحد خارج ولكن أحداً منهم لا يستطيع أن يرفع عينه فيها .. ست جد ولا تعرف إلا العمل .. ورثت ذلك عن أبيها المعلم خصير وورثت عن زوجها الأول المعلم وهدان بيتاً صغيراً ، وماهى ذى الآن معلمة قد الدنيا صاحبة عمارات ووكلات ..

- لهذا تزوجها الحاج ..

- نعم ، لهذا تزوجها ..

- أتظن أنها تحبه ؟ .. سمعت أنه كان طول عمره عاشقاً لها ..

فضحك حلمى وقال :

- يجبها ؟ .. هذا لا يجب أحداً يا برهوم .. إنه لا يستطيع أن يجب أحداً حتى

لو أراد .. الفلوس تملأ حياته كلها وقلبه كله .. إنه مسكين .. هل تصدق أننى أنا الفقير الغلبان أحس أحياناً بالحزن عليه ..

فنظر إليه برهوم طويلاً ، ثم تأمل ملابسه وقال فى سخرية شديدة :

- حزين عليه ؟ .. حقيقة إنك تستحق العُلب الذى أنت فيه وزيادة ..

تحزن على المعلم راغب عبد العال وحالك تحزن الكلب الجربان ! ..

وهز رأسه أسفاً وهو يتأمل (حلمى) فى ملابسه الرثة التى تتحدث عن البؤس

ثم قال له : اذهب الآن إلى الولد المريض ..

وبعد أن ابتعد حلمى قليلاً ناداه برهوم وقال له :

- لا بد أن أمه تستطيع أن تدفع أجر الطبيب . .
 - لا . . لا تستطيع . . تصدق بالله إن هذه السيدة لا تأخذ في يدها نقوداً
 أبداً . . هذا الرجل لا يعطيها مليماً . . إنه يشتري لها كل شيء ، ولكنه لا يعطيها
 مليماً في يدها . . يقول إنه يخاف عليها . . أنت تعلم أنها أصغر منه بعشرين سنة على
 الأقل . .

- يا أخي عجائب . . عنده واحدة شابة مثل القمر ، ويتزوج عليها واحدة
 أكبر منها . .

- قلت لك هذه الأخرى زكية ليست زوجة . . إنها عمل . . فلوس . . هل
 تصدق أن زوجته الأصلية لا تستطيع أن تبيع قرطاً أو أسورة إلا بإذنه ؟
 - إذن فهي لن تستطيع دفع أجر الطبيب لابنها . .
 - لا ، لن تستطيع . . لن تستطيع . .

* * *

دخل المعلم إلى غرفة النوم في الطابق الثاني من ذلك المنزل الخرب الذى يسميه
 وكالة أو مخزناً ، وتهالك على الكرسي الوثير إلى جانب السرير ، وبعد لحظة تلفت
 حوله ثم قام فأغلق الباب بالفتاح وقال :
 - زكية . . أين ذهبت هذه ؟
 وجاء صوتها من الحمام المقفل :
 - آتية . . آتية حالا . .

ووجد على طرف التريجة علبة سجائر ، فأشعل واحدة واستلقى في المقعد
 وأخذ يتأمل ما حوله . كانت الغرفة واسعة وحديثة البناء . لقد أنشأها فوق المخزن
 لزوجته زكية . هى التى طلبت ذلك . قالت إنها تريد أن تكون فى أمان بعيدة عن

الناس . اشترطت عليه أن يبني لها شقة صغيرة من حجرة نوم وحجرة جلوس وحمام . . وأصررت على أن يكون ذلك كله فاخراً وموثقاً تأثيثاً أوفر . . وبالفعل قام بذلك ، فإن غرفة النوم التي جلس فيها الآن كانت غرفة فاخرة - أو « لوكس » كما كانا يقولان . .

ثم انفتح باب الحمام وبدت الست زكية يهيتها الضخمة ووجهها المكتنز وشعرها المصبوغ ، كانت ترتدى « روبا » من الكشمير الأحمر يجمع بين زهو اللون وارتفاع الثمن وقلة الذوق ، ولكنه على أى حال كان يضئ على وجهها المتغضن شيئاً من الحيوية ويهدئ بعض الشيء قسوة ملامح وجهها . وكانت قسبات وجهها تتحدث عن عمر يقارب الخمسين ، ولكن الحقيقة أن هذه السيدة لم تتجاوز الأربعين إلا بستين أو ثلاث ، ولكن الحياة التي سارت فيها بعد مقتل أبيها أعطت ملامحها شيئاً كثيراً من الرجولة والجفاف . لقد قُتل أبوها المعلم خضير وهو في الخامسة والخمسين ، وكان تاجراً في وكالة البلح ممن يتجرون في كل شيء ، غالباً كان أم زهيد الثمن ، مباحاً أم غير مباح . وكان يعاونه في ذلك العمل رجال وشبان كأنهم أبالسة .

وكان أكبر هؤلاء الأبالسة رجلاً بغض الهيئة جافي الطبع يسمى وهدان ويلقبونه بالمطوة . كان جرىء القلب متحجر العواطف ، فأعجب به الحاج خضير وزوجه ابنته ليكون « زيتنا في دقيقتنا » كما قال . ولكن زيت المعلم خضير لم يمتزج قطً بديقيق صبيه « مطوة » - أو وهدان القفاص الشهر بمطوة إذا أردت الدقة . لأن وهدان كان جنأً من البشر ، وكان نظره مثبناً من أول الأمر في أموال معلمه . وكانت زكية إذ ذاك شابة متوسطة الجمال ، ولكن مال أبيها جعل الناس كلهم يقولون إنها « قر مصور » ، وزاد إعجابهم بها أنها كانت بدينة : إذا سارت اهترت

وتبخرت ، واللبانة في فيها وعلبة السجائر في جيبيها ، والجبال عند أولئك الناس يقدر بالوزن وطرقعة اللبانة في الفم والسيجارة في نهاية ذراع مغطى بأساور الذهب إلى المرفق . .

ولم يكده « مطوة » يتزوجها حتى تبين أنها أقوى منه ، كانت بالنسبة له سكين قصاب ، وأنه إلى جانبها « مطوة » صغيرة ، وتبين أن لها لساناً هو أحد من السكين ، فخافها على نفسه ورأى أنه لن يكسب شيئاً من وراء هذه الزيجة . . فطلق زكية . . فعملت مع أيها . ثم مات الأب ، وتربعت هي على عرش السوق السوداء والمال الحرام ، وعرفت الجريمة والمحاكم والسجون والبوليس حتى تحولت إلى صخرة لا تعمر نفسها خلجة إنسانية . .



عرفت زكية المعلم (راغب) وهي في أوج قوتها وصيبتها ، قالت إليه لأنها كانت لا تزال - برغم كل شيء - امرأة ينبض في كيائها الحنين إلى الزواج . وكان هو رجلاً ضخماً مستدير الوجه مقبول الملامح مفتول الشاربين جهير الصوت يعجب هذا الطراز من النساء . ولم تعجبه زكية ، ولكن أعجبه ما لها الكثير وصيبتها في عالم التهريب والسوق السوداء والمال الحرام ، فتزوجها زواجاً هو أقرب إلى المصاهرات السياسية التي لا مكان فيها لحب أو عواطف ، وإنما هي صفقات وعقود . . وقد دخلا في هذا الزواج بروح ثعالب تجار السوق السوداء وتفكيرهم ، فلا هو شريك حياتها ولا هي شريكة حياته ، وإنما هما شريكة عمل يتلاقيان في هذا المكان الذي هو أقرب إلى وِجار الثعلب منه إلى عش الزوجية . .

وجلسا يأكلان طعاماً كان قد أعدده لها بسيوفى ، ثم نظر إليها وابتسم وقال :

- كيف حال السوق ؟

- عال . . كل شيء شحيح في الأسواق والحمد لله . . تستطيع أن تبع أي شيء بأى سعر تريد . . ليس هناك بضاعة رخيصة ومتوفرة غير الناس . .

- بعث الجلد اللصع الذى أتينا به من ليبيا ؟

- والحشيش الذى كان موضوعاً فيه . .

- أستطيع أن أسأل بكم ؟

- بالسعر الذى أردت لهذا وذاك . .

وأراد أن يتكلم فقاطعه قائلة :

- وأنت ماذا فعلت بشحنة الأفعال الليل ؟

- والله كما ترين . . لم أبعها بعد . .

فأخذت نفساً من نارجيلة كان قد أعدها لها بسببوني وقالت :

- كذاب . . بعثها للمعلم قرنى وشريكه ، وقبضت ثمنها . .

- يا زكية عيب . . هل تحسبن أننى أكذب عليك ؟

- طبعا تكذب على وعلى الدنيا كلها . . أين نصيبى من هذه الصفقة ؟

- ستأخذينه يا زكية . . أرجو منك الصبر . .

- ولماذا أصبر إذا كان المال قد دخل جيبيك ؟ ثلاثة آلاف جنيه فى بضاعة

اشتريناها بأربعمائة جنيه ، المكسب ٣٦٠٠ جنيه ، لى منها ١٨٠٠ . . هاتها إلى آخر ملجم . .

- فضرب المعلم كفاً بكف وقال :

- يا زكية عيب . . إننا عائلة . . رجل وامرأته لا يدخل بيتنا شيطان . .

تصدقين بالله . . ؟

- لا . . لا أصدق ولن أصدق أبداً . .

- صبراً قليلاً يا بنت الحلال .. دعينا نتكلم ..
- لا كلام قبل الفلوس ..
- أصل العماره كانت متوقفة ، كنت في حاجه إلى أخشاب وأدوات
صحية .. دفعت ثلاثة الآلاف وسبائة كلها في صفقة خشب للعماره .. وحياتك
يا زكية ما بقى منها معي مليم ..
- وهذه العماره .. ملك من ياسيد الرجال ؟ ..
- إنها لك أيضاً .. ألسنت زوجتي ؟ ..
- يا معلم عيب أن تكلمني كما لو كنت امرأة خاماً جديدة في الصنعة .. أنا
وحدى أعرفك جيداً وأعرف أنك رجل غبي .. غبي وله بخت . ولولاي أنا
لأفلسنت من مدة ولكنك الآن في ليمان طرة ..
- وبعدين يا زكية ؟ .. ألن تدعى أبداً هذا الخلق العنيف ؟ ..
- فلوسي أولاً ..
- أحلف ثلاثة بالله ..
- لا تخلف .. فلوسي أولاً ..
- أعطيك الآن منها ألفاً .. والباقي ..
- لا باقي ولا عفريت .. فلوسي على داير مليم ..
- طيب .. سأعطيك إياها ..
- الآن ! ..
- الآن .. بعد أن تسمعني ما سأقوله لك ..
- قبل أن تقول شيئاً ..
- أمرنا الله .. خدى .. أنت هكذا دائماً - لا تسألين إلا عن المال ..

وبينما كان يفتح خزانة صغيرة مخفية تحت الستار المتدلى إلى الأرض ، قالت :

- وأنت .. عم تسأل يا ضنايا .. عن الحب والعواطف ؟ ..

وأناها بالمال ، وناولها إياه وقال :

- عديها ..

- طبعاً أعدها ..

ومضت تعدّها ..

كان يتأملها بعينين كلها حقد وبغض ، فلما آتمت العد نظرت إليه وقالت :

- ناقص ثلاثون جنياً ..

- هذا كفاية يا زكية .. لا لزوم للتدقيق على المليم .. أيهودية أنت ؟ ..

- أجل ، وألف يهودية ؟ ..

فأخرج الثلاثين جنياً من جيبه ورمى بها أمامها على المنضدة وقال :

- هذه هي ياستى .. يا سلام !

وبعد لحظة عاد يقول :

- عندنا أدوية ..

فقالت :

- أعرف ذلك .. خمس صحارات حقن بنسلين لم تدفع لأصحابها مليماً ..

فنظر إليها طويلاً ثم قال في دهشة :

- كيف عرفت ؟

- أنا هنا من ساعتين .. وحتى لو لم أكن هنا فلا شيء يغيب عني ..

فهز رأسه متعجباً ثم أخذ نفساً من التارجلية ثم قال :

- طيب .. نريد أن نرى همتك .. نريد أن نصرّفها بسرعة ..

فقلت بكل هدوء :

- اليوم مثلاً ؟ ..
- هذه تكون نعمة من الله .. نستطيع أن نبيع هذه الصفقة بعشرة آلاف جنيه .. كل صندوق بألفين ..
- وإذا بعثها بأحد عشر ألفاً ؟ ..
- يبقى خير وبركة .. همتك ياست الملمات ..
- أريد خمسة آلاف جنيه في يدى بعد الصفقة مباشرة ..
- طبعاً .. وهل في هذا كلام ؟ ..
- هذه المرة لا كلام ولا وجع قلب ..
- كلمة شرف ..

فنظرت إليه نظرة احتقار ، ثم قامت في بظه إلى التليفون الذى على منضدة صغيرة إلى جانب السرير . جلست على طرف السرير وأشعلت سيجارة وقالت :

ألا تعمل لنا فنجان قهوة بيدك الحلوة يا معلم ؟ ..

- حاضر .. بعد أن أسمع كلامك بالتليفون ..

- ألا تثق في الناس أبداً ؟

- إنها ليست مسألة عدم ثقة .. إنها مسألة ضبط للعمل .. أنا أعرف أنك ستكلمين المعلم عباس .. وعباس بينى وبينه ما تعرفين ، وأخشى أن تصدر منك كلمة أو إشارة يفهم منها أن الصفقة لى ..

- لا تخف .. أنا فاهمة .. ومع ذلك فسأتكلم أمامك لتكون على نور ..

(وتكلمت بالفعل) . طلبت أولاً المعلم (عباس) فوجدته غير موجود لافى محله ولا فى مبنى عمارته الجديدة ولا عند أى واحدة من زوجاته الثلاث ، فهمت

أنه لا بد أن يكون مطلوباً للبوليس ، فاختنى وأرسل محاميه ليرتب الأمر مع من ييدهم الأمر ، حتى يتحول الموضوع من جناية إلى جنحة ثم إلى مخالفة ، وهنا يظهر على عادته ويدفع المخالفة وينتهي الأمر . .

ثم طلبت المعلم (جنيدى) فقالوا لها إنه فى الإسكندرية ، وعندما علموا أن المتكلمة هى الست زكية وأعطتهم أمانة (برهاناً متفقاً عليه) قالوا لها إنه حاضر ، وبالفعل جاء صوته من بعيد عبر الأسلاك . .

بعد تحيات كثيرة وسلامات أكثر وأسئلة عن الشغل والسوق والأسعار أكثر وأكثر ، دخلا فى الجدل . وفوجئت بأنه يسألها هل لديها أولدى أحد من معارفها بنسليين :

- ياست زكية إن سعره الآن أعلى من الذهب . الناس مستعدون لأن يدفعوا من جنيه لعشرة فى الحفنة التى ثمنها المحدد فى الصيدليات عشرة قروش . .
- غير معقول . .

- معقول ونصف يا معلمة . . هذا شىء لم يحدث قبل ذلك قط . . أعرف ناساً كسبوا خمسة آلاف جنيه فى يوم ، إن حقنة واحدة من البنسليين تنقذ حياة إنسان . . هناك ناس دفعوا ٢٥ جنيهاً فى علبه بها ثلاث حقن . .

- وكيف نحصل على هذا الصنف غير الموجود ؟ . .
- لا أدرى يا معلمة . . ولكنك أنت تستطيعين . . يدك الحلوة المبروكة تحقق العجائب . .

- نشوف . .
- لا والله يا ست . . أرجوك لا تنسينا . . هذه فرصة من ذهب ولا نريد أن تفوتنا قبل أن تعمل المصانع من جديد . .

فسكنت قليلاً ثم قالت :

- ما هذا الصنف الذى تريد ؟

- بنسيلين يا ست .. بنسيلين ..

- أظن أن واحداً من رجالنا عنده كمية صغيرة من هذا الدواء ..

- كلها لى يا ست .. لك زمن طويل لم تسألنى عنى ..

- نسيت بيعة طلاء الزيت ..

- والله خسرت فيها .. أخذتها بأربعة آلاف وبعثتها بثلاثة آلاف ..

- لأنك طماع .. لأنك أردت أن تشتري بأربعة آلاف وتبيع بعشرين ألفاً ..

وجعلك الطمع تنتظر حتى ظهر الإنتاج الجديد للمصانع هنا وهبطت زيت الطلاء إلى الأرض ..

ففكر فى نفسه لحظة ملياً ثم قال متعزياً :

- وماذا نعمل ؟ هذه هى التجارة ، يوم مكسب ويوم خسارة .. يوم لك

ويوم عليك ..

ثم أبرقت أساريه وقال :

- والآن فات اليوم الذى علينا وجاء اليوم الذى لنا ..

فقالت : أظنك تحلم .. أين البنسيلين ؟ ..

- قلبى يقول لى إنك ستأتين به .. عندى الآن مشتر ، معلم قد الدنيا ..

مستعد لدفع أى ثمن .. مستعد للشراء ودفع ٥٠ قرشاً فى الحقنة الواحدة ..

- لبيعهها بجنه ..

- هو وحظه .. ماذا نعمل .. من الممكن أيضاً أن يشتريها بخمسين ويبيعهها

بعشرة أو خمسة ، كما حدث لى مع طلاء الزيت ..

- إذا كان غيباً مثلك فمن الممكن أن يقع له ذلك . .
- يا ست زكية كفاية . . ألا تكفيك الخسارة التي حلت بي ؟ . . دعينا من هذا الحديث . . لدينا رجل مستعد لأن يدفع لنا الوفاً ، وعلينا أن نقدم له البضاعة التي يطلب . .
- إذن دعني أسأل . . أعطني ربع ساعة مثلاً . . انتظر إلى جانب التليفون ، سأطلبك . .
- أمرك يا ست ، أمرك يا ست المعلمين . . أمرك . .
- ووضع الساعة ، فوضعت سماعتها . ونظرت إلى المعلم محمد راغب عبد العال زوجها ، شريك مالها وغريم حياتها ، وابتسمت وقالت له :
- فُرجت . .
- فهمت من كلامك . .
- البضاعة موجودة والزبون موجود . . ما رأيك ؟
- وهل هذه في حاجة إلى رأى ؟ . . نبيع ونشترط عليه أن يوزع البضاعة بعيداً عن منطقة القاهرة . .
- هذا مضمون . . أتريد أن تلتقي أنت والمعلم جنيدى وتم الصفقة ؟
- أنت تعرفين ما بيني وبين جنيدى . . إنه لن يقبل التعامل معي أبداً . .
- لأنك سرقته كما سرقت (عباس) وغيرهما . . لماذا لا تدفع ما عليك للناس ؟
- ليس علىّ ديون . . السرقة في السوق السوداء ليست سرقة . . كلهم لصوص ، ونحن منهم . . هم أيضاً سرقوني كثيراً فما اشتكيت منهم . .
- وبعد لحظة صمت :

- هذه الصفقة تمنيتها أنت . . أنا لمت بنصيبى وأتيت بالبضاعة ، وأنت أتيت بالشارى . . أكملى الصفقة إذن وبَعْدُ نتقاسم . .

- هذه المرة سأستلم النقود فى يدي . .

- وتعطينى نصيبى . . النصف . .

- لا تخشى شيئاً . . لن أخصم منك مالى عندك . .

- انظرى يا زكية . . لا داعى لهذا الكلام . . أنت تعرفين أنك تدينينى . .

- إذن فقم أنت بإتمام هذه الصفقة . .

- وبعدين يا زكية . . أرجوك أن تدعى جانباً هذا الكلام . . لنتم هذه

الصفقة الآن . . لتتخلص من هذه الصناديق ونتقاسم الثمن . . وبعدين نتكلم . .

- اطمئن . . سأتمهما بنفسى هذه المرة . .

وبعد لحظات :

- أظن أننا نبيعه الصناديق على حساب الصندوق ألف جنيه . . هذا أريح ،

لأننا إذا مضينا نبيع له على أساس الحقنة الواحدة فلن نخلص أبداً . .

فلمعت عيناه ببريق الغضب والطمع وقال محتدماً :

- مجنونة أنت ؟ إن الصندوق من هذه يحتوى على أكثر من ٣٠٠٠ حقنة . .

وسنبيعها له على أساس الحقنة خمسة وسبعون قرشاً . . يصبح ثمن الصندوق ٢٢٥٠

جنيهاً . . أقل من هذا لن نبيع . .

فنظرت إليه لحظة ثم قالت :

- صحيح إن هذه سوق سوداء . . ولكن حتى هذه لها حدود . . ولم أرى فى

حياتى طمعاً كطمعك . . أدوية اشتريتها بجمسين جنيهاً لم تدفعها بعد ولا تقنع فيها

بخمسة آلاف جنيه ، وتتصور أننا نأخذ فيها ٥ فى ٢٢٥٠ أى (تحسب فى ذهنها)

١٢٢٥٠ جنيهاً؟ .. هل هذا معقول؟

- معقول ونصف .. إن الحقنة تنقذ حياة إنسان ، فهل جنيه كثير على حياة إنسان ..

- إنك تتحدث كما لو كنت أنت الذى يهب لهم الحياة ..

- اسمعى يا زكية .. أنت بالفعل معلمة كبيرة ولكنى أكبر منك وأعرف أكثر منك وأعرف أن لا شيء فى الدنيا له قيمة إلا المال .. وهل أصبحت أنا معلماً وأنت معلمة إلا بالمال .. ومن دون المال ماذا نساوى؟ فلماذا إذن تأخذ خمسة آلاف إذا كان فى إمكاننا أن نأخذ ١٢٢٥٠؟

- لأن لكل شيء حساباً يا حضرة المعلم ، حتى فى السوق السوداء هناك شيء اسمه الإنسانية .. تريد أن تبيع الحقنة بخمسين قرشاً لبييعها هو بجنيه؟ .. فإذا يفعل رجل عنده ابن مريض إذا كان فى حاجة إلى خمس حقن وليس معه خمسة جنيهات ..

- على أى حال .. حتى إذا بعناها لجنيدي بخمسة قروش فسيبيعه هو بجنيه .. والمال الذى سنخسره نحن سيكسبه هو ..

- شوف ياراعب ، إننى أعرف كل تجار السوق السوداء ، كلهم لصوص وجبارون ، ولكن فى الزنك والأسمت والحشب والحيش والحديد ، أما الدواء فلا ..

- إذن ماذا تريدين؟ .. تقف بها على باب السيدة زينب ونوزعها مجاناً .. لا أريد وجع الدماغ معك .. هذه الصفقة ستباع بخمسة آلاف جنيه ، وأنا صاحبة أفضال على جنيدي وسأمره بأن يبيعه على أساس الحقنة ثلاثون قرشاً .. هذا كفاية ..

- ثلاثة بالله العظيم لن أقبل في هذه الصفقة أقل من ١٠,٠٠٠ جنيه .. وقد تركت الباقي إكراماً لك .. الصندوق بألقين .. هذا معقول جداً ..

بعد لحظة صمت قالت :

- إذا كان هذا قرارك فأنت المسئول أمام الله ..

فقال ساخراً :

- موافق .. مسئول أمام الله .. أمام الناس .. أمام العفريت .. المهم أن تتم هذه الصفقة ونضع النقود في جيوبنا ، ولك بعد هذا أن تقولى ما تريد ..

- لن أقول لك شيئاً بعد الآن في هذا الموضوع .. سترى أن المعلم (جنيدى)

لن يدفع أكثر من خمسة آلاف جنيه .. لا تريد أن نضيع الوقت في مناقشات حول النقود .. هذه الصفقة لا بد أن تتم في ساعات لأنها سرقة ضخمة من مال

الحكومة ، وأموال الحكومة لها صوت .. الناس معذبون على حقنة بنسيلين واحدة ونحن عندنا خمسة آلاف ! .. هل تظن أن يظل أمر هذا طويلاً في طي الكتمان ؟

- دعيني أنا أتصرف .. سترين أن النتيجة ستكون طيبة ..

- لك وحدك ..

- بل لى ولك .. نصف ما سأخذه لك ..

- اتفاق شرف ؟

- اتفاق شرف ..

- لو ختني هذه المرة فسأعرف كيف أنقم منك ..

- لن أخونك ..

- إذن فسأتصل بجنيدى بعد لحظات ..

وذهب فاغتسل ، ثم أقبل واستلقى على السرير وأغرق في النوم وعلا صوت

شخيره . . . وفتحت الباب المؤدى إلى السلم وخرجت ، وأغلقت الباب من خلفها ، وأشارت بيدها فأسرع إليها برهوم وتهامسا بعض الوقت ، وفى أثناء الحديث تناولها علبة من البنسيلين . كانت هى العلبة التى فحصها حلمى وقرر على أساسها أن البنسيلين « حر ووارد أوروبا » ولم يعدها إلى الصندوق مرة أخرى .

وقالت هامسة وهى تناوله ورقة مالية :

- هذا هو البنسيلين الذى اشتراه ؟

- شىء محترم جداً يا ست . . .

- إذن لا تقل شيئاً . . . واذهب أنت الآن ولتكن مفتوح العينين . . .

ومضى ، ودخلت وأغلقت الباب خلفها . . .

وتنبه المعلم راغب عبد العال وفتح عينيه وسألها أين كانت فلم تجب ، فقال

لها :

- الآن تكلمين (جنيدى) ليأتى ويتسلم البضاعة . . .

وبينا كانت تكلم (جنيدى) كان هو يلبس حذاءه وأذنه مصغية إلى التليفون .

سمعها تعلن لجنيدى أنها وجدت البضاعة المطلوبة وأن لديها منها خمسة صناديق فيها عشرة آلاف حقنة . وسمع (جنيدى) يقول لها إنه لا يريد أن يدفع إلا خمسة آلاف

جنيه ، فوضعت يدها على الساعة وقالت :

- لا يريد أن يدفع أكثر من خمسة آلاف . . .

- قولى له : يفتح الله . . .

- كيف أقول له ذلك ؟ . . . نحن الآن قرب العصر ، وهذه البضاعة لا بد أن

تُحمل من هنا الآن . . . من يدري ماذا يفعل التمرجيان الآن ؟

- إذن قولى له ستة آلاف . . . لا تنقص مليماً . . .

فرفعت يدها عن الساعة وقالت تخاطب (جنيدى) :

- شوف يا معلم .. هذه بيعة لا مكسب فيها .. آخر كلمة ٦٠٠٠ جنيه ..
فجاء الصوت من بعيد :

- يا معلمة زكية أنت تعرفينى جيداً .. إننى أقدر كلمتى قبل أن أنطق بها ..
لنا عشرون سنة نتعامل ، وكلمتى واحدة لأننى لا أظلم ولا أظلم ..
فقال المعلم راغب :

- أمرنا الله .. نبيعها بخمسة آلاف .. المهم أن تقولى له إننا نشترط أن يكون
توزيع هذه الأدوية بعيداً عن القاهرة .. يأخذها ويمضى رأساً إلى مديرية بعيدة ..
فقالت زكية للمعلم جنيدى على التليفون :

- طيب .. لنا شرط واحد يا معلم ..

- كل شروطك يا ست ..

- هذه البضاعة توزع بعيداً عن القاهرة ..

- هذا بالضبط ما كنت سأفعله .. واحد من عملاى فى أسبوط طلب

البضاعة ، وشاحته تنتظر لتأخذ هذه الصناديق معها .. إذا تسلمناها الساعة
الرابعة اليوم ، فى الخامسة ستكون فى الطريق إلى الصعيد ..

- إذن متى تأتى بالنقود لتأخذ البضاعة ؟

- الساعة الثالثة والنصف إذا أردت ..

- قبل ذلك إذا استطعت ..

- أمرك ..

- نحن ننتظرك فى وكالة المعلم راغب عبد العال ..

فقال المعلم جنيدى :

- هل لراغب دخل في هذه البيعة ؟ ..
- لا .. إنها لى ، لى وحدى .. تيقن من ذلك . صحيح أن (راغب)
زوجى ولكن كلُّ منا له أعماله .. ووضعت الساعة وقالت :
- مبسوط ؟ ..
- لا والله .. حكاية ٥٠٠٠ جنيه فقط لا تعجبني .. إننى الآن فى حاجة إلى
٨٠٠٠ جنيه لأتمم عمارة شارع الحجاز ، وهذه الصفقة لا تأتى إلا بخمسة فقط ..
فقلت ساخرة :
- مالك يا سيد المعلمين ؟ .. جنت أم أنت تهزل ؟ .. ليس لك من هذا
المبلغ إلا نصفه : ٢٥٠٠ لا غير لك ، ومثلها لى ..
- آه .. نسيت .. لا تؤاخذنى .. الإنسان لا يدرى ماذا يقول ..
- أحسن لك أن تدرى ..

٤

وانتهى الحديث . وصمت الاثنان فى انتظار الساعة الثالثة والنصف .. فأما
زكية فأشعلت سيجارة ومدت رجلها على كرسى مقابلها وحاولت النوم .. وأما
راغب عبد العال فقد فتح الباب ونزل ليحصى شكايات الأسمت والزك المكدة
فى جوانب الحوش الواسع .

وعندما وصل الحوش نادى (برهوم) وأمره أن يخرج الورقة والقلم ليحصى
معه وتعبا بعد أن فعلا .. حتى إذا تواريا بين حائطين من أكياس الأسمت قال
راغب همساً :

- اسمع يا واد يا برهوم .. بعد ساعة أو نحوها سيأتي المعلم جيندى عبد الدايم ، أتعرفه ؟
- طبعاً أعرفه يا معلم .. بيننا وبينه ما لا يعلمه إلا الله ..
- اليوم اتفقنا على أن يشتري صناديق الأدوية .. سيأتي مندوبه ..
- عبد التواب عزب .. إنه صديقي ..
- تسلم منه خمسة آلاف جنيه نقداً وعدداً وتسلمه الصناديق وتقول له يطلع على الأرياف على طول .. خذ هذه الصناديق وانتظر بها في الدكان .. لا أريد أن ترى زكية شيئاً .. إنها نائمة فوق .. انتظرنى أنت بالنقود في الدكان .. وأنا سأنتظر في الحوش هنا .. هات لى الشيشة والقهوة .. بمجرد أن تسمع صوت كاميون تدخل المحل من الباب الخلفى وتقوم بالصفقة وتنتظرنى حتى آتيك ..
- والست زكية ؟ ..
- نائمة ولا تدرى شيئاً .. اتصل الآن بصاحبك عبد التواب عزب وقل له أن يأتي في الثالثة بدلا من الثالثة والنصف .. يعنى بعد نصف ساعة فقط ..
- أمرك يا معلم ..
- وأناه بالقهوة والشيشة ، وجلس المعلم على عرشه المتواضع تحت السلم ومضى يدخن .. أما زكية فقد غلبها النوم . كانت تظن أن أمامها ساعة من زمان حتى الثالثة والنصف ، وأنها تستطيع أن تهوم هذه الساعة في اطمئنان ..
- ولكن الصفقة كلها تمت في الساعة الثالثة بحسب ما رسم راغب عبد العال ..
- وفي الثالثة والرابع كانت النقود قد استقرت في جيوب خاصة بالنقود كل منها يسع ألفي جنيه من الأوراق فئة عشرة الجنيهات في الصديري الذى يلبسه راغب تحت جلبابه الواسع ..

وكان المعلم جنيدى قد خرج من محله وقال لمعاونه إنه سيمر على العمارة ، وفي الوقت نفسه كان الكاميون المحمل بالبضاعة السوداء من كل صنف متجهماً بسرعة نحو الحيزة ومن هناك إلى أسيوط ، رحلة تستغرق طول الليل . وإلى جانب السائق جلس عبد التواب عزب . .

وقال السائق :

- معك « كيف » يا معلم ؟ إننى أشعر برأسى كالحجر . .
- بعد أن نمر من المنيا - أنت تعرف أن مباحث المنيا شديدة جداً . . فيها ضابط كأنه النمس . . لا تنفع فيه رشوة ولا حيلة . . ربنا يسلم . .
- إذن على الأقل هات سيجارة . .
- وفي ذلك الوقت نفسه : الثالثة والرابع كانت زكية تغطّ غطيظاً . .

* * *

في الساعة الثالثة والنصف صحت زكية ونادت المعلم (راغب) . . فقام من مكانه وصعد نصف السلم وقال لها : لم يأت المعلم جنيدى أوأى واحد من طرفه كلميه بالتليفون . .

ودخلت لتتكلم بالتليفون ، وصعد هو بقية السلم على مهل ، ودخل وجلس على كرسيه ، وقالت له :

- يقولون إنه خرج يمر على عماراته . .
- وما العمل ؟
- نتظر نصف ساعة . . لا بد أنه في الطريق إلينا . .
- أظن ذلك . . استمرى في طلبه . . أنا منتظر في الخوش . .
- ونزل فجلس مكانه . . جلس بوجه جامد كوجه أبى الهول . لا تم خلجة من

خلجاته على أنه فعل شيئاً . . .

وفي الساعة الرابعة والنصف صعد إليها وقال :

- هل ترين ما فعل زفت عبدالدايم صاحبك ؟ . . قلت لك إنه رجل هلس . . طول عمره رجل هلس . . هكذا عرفته دائماً (ونظر في ساعته) أنا ذاهب الآن لأبحث عن عميل آخر . . هذه الأدوية لا يمكن أن تبيت هنا . . ولن تباع بالتليفون . .

فقلت :

- لا عليك . . معلش . . سأذهب إليه بنفسى . . أنا أعرف أين يجتبي . .
- إذن فسأمضى الآن واخرجى أنت على مهلك . . والبضاعة عند برهوم هاتى المعلم ليحملها ويدفع لك النقود . . وعندما تتلاقى يأخذ كل منا نصيبه . .
- الساعة السادسة مثلاً ؟

- خليها الثامنة هنا . . عندى عمل الآن . .

وخرج . .

وبعد ربع ساعة كان برهوم معها فى المسكن الصغير . . ناولته ورقة بعشرة جنيهات فجعل يدعوا لها بطول العمر . .

ثم قص عليها كل شىء . . ولم يقل لها شيئاً عن دوره هو بل نسبة إلى واحد آخر من المقاطيع - أى المقطوعين لخدمة المعلم - اسمه حنى . .

وتصاعد الدم إلى رأسها وتمشى الغضب البالغ فى ملامحها ، وظلت واجمة لحظات ، ثم قالت تحدثت نفسها :

- هكذا يا راغب الكلب ؟ . . تضحك علىّ للمرة الثالثة ؟ . . لكن معلش زكية هى زكية وستعرف كيف تشرب من دمك . .

ثم التفتت إلى برهوم وقالت ..

- وأين هذا الكلب حنى؟

- ذهب .. ركب الكاميون معهم ولن يعود إلا في الغد ..

وتركته يتحدث ومضت خارجة ..

* * *

ولم تكذب تخرج حتى أتى حلمى . كان مضطرباً قلقاً . سأل عن المعلم فقالوا له إنه

خرج .. فسأل برهوم :

- وابنه؟ .. ابنه مريض جداً .. لا بد أن يذهب إلى البيت الآن .. الولد

عنده حرارة عالية ..

- ومالك أنت وهذه المسألة .. هل هو ابنك أو ابنه؟ .. ألم تقل له إن الولد

مريض؟

- عشر مرات أمامكم .. فى كل مرة يقول : دعنى من ذلك الآن ! ..

والولد عيان وحالته تسوء ساعة بعد ساعة ..

- والطبيب؟

- لا يريد أن يأتى .. يقول إن المعلم لا يدفع .. علينا له مبلغ كبير ..

- ألا يوجد طبيب آخر؟

- كل الأطباء الذين نعرفهم يعرفون أن المعلم لا يدفع .. وأم الولد كما قلت

لك ليس فى يدها مليم .. ألا تقرضنى هذا المبلغ يا برهوم؟

- أقرضك؟ .. وما دخلى أنا هنا؟ .. إذا كان هذا المعلم لا يدفع للأطباء

فهل يدفع لى أنا؟ فليحترق هو وابنه !

- إذا لم ندرك الولد الآن فالله وحده يعلم ما سيجرى له ..

- لا شأن لك بهذا . . أنت شغال عند المعلم ، وقد أبلغته حالة ابنه عشرين مرة . . انتهى دورك . . اجلس الآن إلى جانبي ودعنا نتحدث . .
 - لا أستطيع . . لا بد أن أجد المعلم . . لا بد أن آتي بالطبيب . . سأحاول مع الدكتور وصني مرة أخرى . .
 فقال برهوم وهو يصلح الشيشة التي تركها المعلم ، وأخذ يشعل النار في بقايا الفحم فيها وهو يقول :
 - طول عمرك غبي وحمار . . لهذا طردوك من الحكومة . . ولهذا أنت أفقر من الفقر . . اجر إلى الدكتور وصني والدكتور فتحي . . وفي النهاية لن تنال من المعلم إلا الصفع على القفا .

• • •

الساعة الثامنة إلا خمس دقائق ، كان شرارة جالساً في قهوة شلبي خلف الوحدة الصحية الجديدة . .
 في الثامنة تماماً أتى المرضان توفيق زكي غراب ، وفرج غالي يوسف ودارا بصرهما يبحثان عن شرارة حتى وقعت عين توفيق عليه فاتجه نحوه ، فأسرع بدفع حساب المقهى ونهض . . وسار الثلاثة معاً دون أن ينبس أحدهم بكلمة . .
 وكان الباب الخلفي لمخازن الوحدة الصحية الجديدة في حارة ضيقة أرضها مغطاة ببقايا الصناديق وعلب الكرتون والورق والأقذار من كل صنف . . كانت بناية عالية من أربعة طوابق . . وقال شرارة :
 - كل هذه ملأى بالأدوية ؟
 - هنا مخازن أدوية وأرشيف وأدوات صحية وأدوات مستشفيات ومكاتب .
 أشياء كثيرة تساوي مئات الألوف . .

فقال شرارة :

- ألوف .. ملايين .. لا يهم .. هل هو مال أينا ؟ .. المهم أن ننفذ أوامر المعلم .. وبعد لحظة اقترب منها وقال في شبه الهمس :

- هنا طبعاً ورق وقش وقاش وبلاستيك .. وكل شيء يحترق ..
- كثير جداً ..

- لا أحد هنا ؟ ..

- هنا حارس واحد ، وقد رأيته الآن خارجاً لفلاة العشاء .. ولن يعود قبل ساعة أو ساعتين ..

- إذن فلنسرع بالدخول ونقفل الباب خلفنا ثم أشرح لكما الخطة .. ويحذر شديد فتح توفيق باب المخزن ، ودخل الثلاثة وأغلقوا الباب في هدوء . وأخرج شرارة بطارية وخلع جلبابه فإذا هو ملفوف الوسط بجزام معلقة فيه زجاجات كيروسين صغيرة .. وقال وهو يمسك بعلبة ثقاب في يده وبطارية كهربية باليد الأخرى ..

- أصول الحرق أن تشعل كل الأدوار .. تبدأ بالعمل في الدور الأعلى فالذى يليه ، فالذى يليه ، ونازلاً حتى الدور الأرضي ..

والآن نبدأ من الدور الأعلى .. نجمع في الوسط وفي الأركان أكواماً كبيرة من الورق والقماش والكرتون وورق الجرائد وقطع البلاستيك وكل شيء يشتعل .. (وأشار إلى توفيق وقال) أنت تعمل هذه الأكوام في الدور الرابع .. وأنت مخاطباً (فرج) تعمل ذلك في الدور الثالث .. وأنا في الثاني وهذا الدور .. وأنا معي هنا أربع زجاجات كيروسين كل واحدة نصف لتر .. اصعد أنت ياسي فرج ورش على كل كوم شيئاً من الكيروسين ، وتكون إنت ياسي توفيق معي .. بعد أن نرش البترين

على أكوام الورق في كل دور أفق لك على الباب وأنت توقد كل كوم على حدة ، فإذا ارتفعت النار هبطنا إلى الثالث وتقوم يا فرج بالإشعال . في الوقت نفسه أقوم أنا بنفس العمل في الدور الثاني ، ثم نهبط نحن الثلاثة إلى الدور الأرضي ثم نسرع بالخروج من المبنى ونغلق الباب بالمفتاح . .

وتمت العملية على حسب هذه الخطة ، ولكن أكوام الورق والقماش في الدور الأرضي كانت ضخمة جداً ثم انفجرت أنابيب وزجاجات كثيرة وامتلأ المكان بالدخان . واندفع توفيق نحو الباب وأراد أن يولج المفتاح في ثقبه فلم يستطع . كانت الحرارة شديدة جداً ، وحاول توفيق جهده فلم يستطع إدخال المفتاح . وصاح به شرارة وضربه على وجهه فوقع المفتاح على الأرض ولم يعثروا عليه . . وفي ذلك الوقت كانت القاعة الكبرى للمخزن قد أصبحت قطعة من اللهب . . واشتعلت النيران في كل الأدوار وتعالأ ألسنة اللهب فلم يعرف المجرمون الثلاثة من أين يخرجون ففضوا يقفزون من ناحية لناعية والنيران تلاحقهم وتمسك بملابسهم حتى غابوا وسط النيران . .

* * *

وكان المعلم راغب عبد العال قد ذهب إلى مقهى أنس الوجود ، غير بعيد عن المخازن ، ثم قام وتمشى ناحية الوحدة السحبة فرأى مبنى المخازن وقد استحال إلى شعلة من نار ، فابتسم في هدوء وغمر السرور نفسه وقال : الحمد لله . . عفارم عليك يا ولد يا شرارة . . هكذا يكون الشغل . .

وأشعل سيجارة ، وسار في طريقه في زهو وخيلاء وهو يتحسس صدره وفيه الآلاف الخمسة من الجنيهات ومبالغ أخرى ، وقال : الآن أصبحت حللاً ! ثم أخذ تكسيماً حمله إلى بيته . .

• • •

وماكاد ينزل من التاكسي حتى اندفع نحوه حلمي وهو يصيح :
 - حرام عليك يا معلم .. طارق حالته سيئة جداً ونحن نبحث عنك في كل
 مكان ..

- والطبيب .. ألم تأتوا بطبيب ؟

- الحمد لله ، الدكتور وصنى أتى الآن فقط .. دفعت له أجرته من جيبي
 مقدماً ، وهو منتظر فوق ..

ولم يشأ المعلم أن يفقد وقاره فسار في تودة ، ولكن ضربات قلبه تزايدت ،
 وأحس بخوف عميق ، الآن فقط ذكر أن له ولداً وأن هذا الولد وحيد ..
 وصعد السلم واندفع إلى حجرة الغلام وقال :

- مساء الخير يا دكتور .. كيف الحال ؟

فنظر إليه الدكتور وصنى طويلاً ثم قال :

- لا أستطيع أن أقول إن الحال طيبة .. إنها دفئيراً ولا بد من أن أعطيه الآن
 حقنة بنسيلين مضاعفة لأننا تأخرنا ..

- ولماذا لم تعطوه إلى الآن ؟

فقال حلمي :

- سألت يا معلم في كل الصيدليات حتى العتبة الخضراء .. لا توجد حقنة
 بنسيلين واحدة ..

- وصيدلية الإسعاف ؟

- ليس فيها شيء .. غداً تنزل الحكومة بنسيلين كثيراً .. هذا الدواء لا يوجد
 إلا في الوحدات الصحية ومستشفيات الحكومة ..

فقال المعلم في لطفة :

- هل نجده في الوحدة الصحية الجديدة ؟ .. إنها قريبة من هنا . .
 - وقال الطبيب :
- أسرعوا أرجوكم . . بعد نصف ساعة ينقطع الأمل . . حرارة الولد أربعون وثلاث شرط وقد بدأ يحتق .
- وأسرع راغب وخلفه حلمى يقفزان السلام قفزاً ، وأخذوا يجريان نحو الوحدة الصحية الجديدة وهما يلتفتان على تاكسى . . تعب المعلم راغب من الجرى فوقف يلتقط أنفاسه وأخذ يقول لحلمى :
- أنا أعرف اثنين من المرضين هناك . . إنها مع شرارة . سنجدهم في قهوة شلى في الطريق ، إذا لم نجدهم هناك فسيكونون قطعاً قرب الوحدة الصحية ومحازنها . . ومراً بمقهى شلى وسألا عن شرارة فقل لها إنه مشى من نحو ساعة . . والتفتا ناحية الوحدة الصحية . . فراعها الحريق . كان اللهب يتصاعد في الجوكأنه قطعة من السعير . كانت هناك ألوف الناس وعربات مطلق ، وصرخ المعلم بأعلى صوته وقد ملكه الجزع : شرارة . . شرارة . .
- واستمر يصرخ حتى وضع رجل يده على ذراعه وسأله :
- شرارة مين يا حضرة ؟
- فقال في ذهول : شرارة . . شرارة أبو حجر . . ومعه ممرضان : توفيق وفرج . .
- يقولون إن ناساً ماتوا في الحريق . . سمع الناس أصواتهم تستغيث . . انحبسوا في الداخل وأراد المعلم راغب أن يحترق الناس فنعه رجال البوليس فصاح :
- شرارة . . شرارة بالداخل ومعه اثنان من المرضين أصحابى . .

ولم يرد عليه احد . كان الناس جميعا مشغولين بالحريق ..
وصاح حلمى :

- نسرع إلى القصر العيى . . هناك عندهم ولا بد بنسيلين . .
وأسرع الاثنان يجران كالمجانين . واستوقفا تكسباً فى الطريق وركبا ، وسارت
بها السيارة حتى دخلت شارعاً طويلاً ضيقاً شبه مهجور ، وإذا بتاكسى آخر
يلحقها ويطلق آلة التنبيه ثم سبقها واعترض الطريق . وقفز من ذلك التاكسى
الآخر رجل وأسرع إلى تاكسى المعلم راغب وقال :

- معلم راغب ..

- من أنت ؟ ..

- أنا واحد يأتيك بينسيلين لابنك ..

فصرخ راغب :

- أين ؟ .. هات .. هات ..

- تعال معنا ، اصرف هذا التاكسى وتعال .

- إلى أين ؟

- هنا .. اطمئن يا معلم راغب .. ستحصل على الدواء الآن ..

فهز الرجل رأسه وصرف التاكسى ، ونزل يسير على مهل حتى وصل إلى
التاكسى الآخر ودخل فيه ونظر ، فإذا به أمام زوجته زكية وجهاً لوجه . كانت
تبتسم فى سخرية ، مما أثار غضبه ، ولولا أنها كانت محاطة بأربعة رجال كالغيلان ،
من بينهم سائق التاكسى نفسه لانهاك عليها ضرباً . وامتلك نفسه وقال :

- ماذا أتى بك وماذا تريد؟

- ألت تريد دواء لابنك ؟

- نعم . . أسرعى به أرجوك . .
 - صبراً . . لقد عرفت كلَّ ما حدث . . عرفت أنك خدعتنى وعرفت مسألة
 حرق المخازن . . كلَّ أسرارك عندى . ولهذا ذهبت لأرى الحريق . . وهناك
 وجدتك وعرفت أنك بحاجة إلى الدواء فلحقت بك ومعى الدواء . . ألسْتُ بنت
 حلال ؟

- بنت ألفت حلال . . هاتى الدواء أرجوك . . الولد يوشك أن يموت . .
 - الدواء بضمنه . .
 - خذى ما تريدن . .
 - معى علبة فيها تسع حقن تنقذ ابنك . .
 - اطلبي ما تشائين . .

- ثمانية آلاف جنيه : الخمسة التى خدعتنى فيها اليوم ، والثلاثة التى سرقتها
 منى فى صفقة الأسمنت الأسبوع الماضى . . والعلبة دى مجاناً علشان خاطر الولد
 المسكين . .

- يا ناس ! يا هوه ! ثمانية آلاف جنيه ثمناً لتسع من الحقن . .
 لا . . ثمن حياة ابنك . .
 - إذا كان الأمر كذلك فوالله لا أدفع . .
 - ابنك أو المبلغ . . اختر واحدة منها ولا مناقشة . .
 - يا زكية حرام . . هذه سرقة . . سرقة لم يسمع بمثلها قط . .
 - أقل بكثير من سرقة الصناديق من الرجلين وبيعها بخمسة آلاف . . ثم حرق
 مخازن فيها ألوف وألوف . .
 - يا زكية مش ممكن .

وهنا صاح حلمى :

- يا معلم ادفِع . . أنت تشتري الآن حياة طارق . .

ففكر لحظة ثم قال :

- لكن الفلوس ليست معى الآن . .

فعاد حلمى يقول :

- الفلوس فى صدرك يا معلم . . معك عشرة آلاف جنيه . . أدرك ابنك

يا معلم أرجوك . .

وقال أحد رجال الست زكية فى جفاف :

- يا معلم . . ليس عندنا وقت نضبعه . . إذا كان وقتك رخيصاً فوقتنا نحن

غال . .

فقال حلمى وهو يتوسل :

- كيف يكون وقته رخيصاً . . إنها حياة طارق أعز إنسان عليه . .

وقال أحد رجال زكية :

- ثمانية آلاف أو لا دواء . . إذا لم تكن تريد فانزل من السيارة ودعنا نمضى

لسيلنا . .

وقالت زكية :

- الفلوس أو ابنك . .

فقد المعلم يده فى صدره وأخرج رزمات ضخمة من الأوراق المالية وناولها

(حلمى) وقال :

- عدّ لهم ٨٠٠٠ جنيه

ثم قال لزكية :

- الدواء أرجوك ..
- النقود في يدي أولاً ..
- وناوئها حلمى النقود وأعطى الباقي للمعلم راغب فوضعه في جيبه كالمذهول ..
- ثم مد يده وتناول الدواء ..
- وقالت زكية للسائق :
- على بيت المعلم راغب بسرعة ..

وانطلقت السيارة حتى بلغت باب بيت المعلم راغب ، فتزل حلمى مهرولاً ،
وتبعه المعلم ! ..

• • •

- على باب البيت كان الدكتور وصفى ينتظر ..
- وقال حلمى :
- ها هو ذا البنسيلين يا دكتور .. علبة كاملة ..
- ووقف الطيب صامتاً ، ونظر في ساعته ثم نظر إلى المعلم راغب وقال :
- تأخرت يا معلم .. البقية في حياتك .. الولد مات . من ربح ساعة ..
- ثم مد يده بورقة فتناولها منه حلمى ، وقال الطيب :
- شهادة الوفاة .. سلموها في مكتب الصحة غداً ..
- وجلس المعلم على عتبة البيت وقال يخاطب (حلمى) وكأنه يخاطب نفسه :
- شهادة وفاة بثأنية آلاف جنيه !
- وبعد لحظة هب واقفاً وصرخ :
- نار .. نار في جسدى ..

وبينما انطلقت الصرخات على الطفل الميت من النوافذ ، كان حلمي يردد :
- نار . . كلها نار . . يأكلون ناراً ويشربون ناراً . . عيشتهم نار . . وآخرتهم
نار . . نار . . نار .